دأب الرياح أن تنثر اللقاح في كلّ مكان..
فتكون سبباً في نمو الأشجار الباسقة..
ليستظلّ الناس بظلّها..ويأكلوا من ثمرها

فكن كالريح المرسلة

داود سليمان العبيدي

حبك التوبة

مكتبة المنار الإسلامية

حينما.. يضيق الصدر..ويشتدّ الكرب..ويعظم الخطب..وتُفقد الحيلة

حينما.. تُنشد الحقيقة..وترنو النفس إلى أفق رحب..حيث السعادة والراحة والطمأنينة

حينما.. تتلبّد الغيوم..وتبكي السماء..وتمتلئ المآقي بالدموع

حينما.. يصحّ العزم..وتصدق النيّة...لينبثق من فجرها قرار التغيير

..حينها فقط..

تتحوّل النيّة إلى عمل دؤوب..وسعي متواصل..نحو الغاية المنشودة..والأمل المعقود...ويبقى بينها وبين صاحبها قيد شبر..ليقف الموت أمامه بالمرصاد

فكفيف كانت النهاية؟؟

أخي المبارك..والأخت الفاضلة : إذا وجدت القصّة في نفسك وقعا وأثرا..فأسعدنا بمعرفة ذلك..

ونعدك بإذن الله بالمزيد منها..أرجو فقط المراسلة على بريد : mojarrad_insan@yahoo.com

جبل التوبة

داود سلمان العبيدي

جبل التوبة

مكتبة المنار الاسلامية

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية
١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

مكتبة المنار الاسلامية - الكويت - حولي - ص.ب: ٤٣٠٩٩

الراهب

أمضى الراهب بقية نهاره في القرية الرابضة على سفح الجبل المقابل للجبل الأخضر الذي تقع عليه صومعته. كان يريد أن يبقى في القرية إلى ما بعد الغروب ، كان يشعر بإحساس غريب يدعـوه إلى البقاء فيها ، أو الذهاب إلى قرية أخرى ولا يعود إلى الصومعة !. ولكن بوادر عاصفة قوية بـدأت تظهر في الأفق ، وقطع من الغيـوم الصغيرة البيضاءانتشرت في السماء ، وقد أسرعت الشمس نحـــو المغيب . .

وعاد الرعاة يسوقون أغنامهم،وتلكأ الراهب في سيره وهو يتطلع إلى الأغنام البيضـاء المعلمة ظهورها باللون الأحمر ، وهي تنحدر بخفة من فوق الجبال . . ولكن عدداً من الرجـال الذين عادوا من الحقل ، يتقدمهم رجـل رث الثيـــاب ، يشتد على حماره ، أشاروا عليه بالإسراع إلى الصومعـة .

وازدادت قوة الريح ، وأقبلت السحب يلهب ظهرها سوط البرق ، ولم تعد أنامل الشمس الوردية تنفذ خلال الغيوم البيضاء

وعادت أسراب الطيور تزقزق في السماء، وعلى مسافة بعيدة ظهر أحد الرعاة يتقدم غنمه ، يتلفت بين لحظة وأخرى حاثاً لها على الاسراع ..

ووقف الراهب ينظر إلى الجبل الأخضر الذي انتشرت عليه بعض الأشجار الصغيرة النامية ، والتي أخذت الرياح تهزها بعنف، ينظر إلى الصخور التي أحبها، وعاش إلى قربها ، وسكب دموع التوبة على بعضها ، هذه الصخور تبدو له هذا اليوم غريبة منفّرة ، لا تطاوعه نفسه على الاقتراب منها .

وغطت الغيوم السماء ، وبدأت ترسل رذاذاً ، تساقط على وجه الراهب ولحيته ، فمسح وجهه بيده ، ولم يكترث لدوي الرعد الذي يصم الآذان ..

ولكن المطر بدأ يشتد، فأسرع الراهب يسلك الطريق المعبد إلى الصومعة ، ولم تنج ثيابه من البلل . وعندما

دفع باب الكهف الذي اتخذه صومعة ، شعر بيد خفية تمنعه من الدخول ..

أين يذهب في هذه الساعة ؟ .

وأظلمت الدنيا ، ونزل المطر غزيراً ، وكان البرق يلمع فترى قمم الجبال ، وتبدو بعض الصخور البيضاء الناصعة والى جانبها صخو سوداء أو حمراً داكنة .

ومن مكانه استطاع أن يسمع نباح الكلاب في القرية على سفح الجبل المقابل ، ولم يعد يرى الراعي الذي عاد مسرعاً ، ولم يبق في الجو طير واحد .

كان فيما مضى يعجبه هذا المنظر، منظر السماء المزدحمة بالغيوم ، والمطر الغزير ، وكان ينطلق بكل كيانه يشارك الرعد في تسبيحه ، ويحس بدفقة إيمانية تغمره ولا يريد أن تغادره أبداً . .

ما أسعد تلك اللحظات التي مضت . . وما أجملها . .

ولكنه هذا اليوم ، يبدو كئيباً منقبض النفس ، ولا يدري لماذا ؟ . .

لقد بات الليلة الماضية ، متهجداً حتى الصباح ، مبللاً

الأرض بدموعه ، سائلاً الله الرحمة والغفران. وقد نام أول النهار بما فيه الكفاية ، وعندما استيقظ رأى أن يذهب الى القرية لجلب ما يحتاجه منها ، ولـكي يعطي لنفسه بعض الراحة لكي تستعيد نشاطها،وتقوى على العبادة ومواصلة السير الى الله .

ولكن ما أن احتوته القرية ، حتى أحس بعدم الرغبة في العودة إلى الصومعة . . كان يريد أن يبقى أطول مـدة ممكنة ، وتمنى في قرارة نفسه لو قضى الليل فيها ، بل أخذ يعاتب نفسه ؛ لماذا لم يذهب إلى القرية البعيدة ، إذن لمـا عاد هذه الليلة إلى الصومعة .

لقد هرب من الناس ، أراد أن ينصرف إلى العبادة ، أن يعبد الله وحـده لا يشرك به شيئاً ، أراد أن يعبد الله حتى يلقاه وهو راض عنه غير غضبان ، أراد أن يزكي نفسه، ويطهر قلبه،لكي ترتفع روحه إلى مصاف الصالحين الذين أنعم الله عليهم . .

وهكذا جاء إلى هنا . . بعيداً عن دنيـا الشهوات والملذات ، بعيداً عن المعاصي ، قريباً من الله .

وبدأ في رياضة نفسه ، وتدريبها ، وتأديبها ، حتى رقّت ولانت ، وانقادت إلى طاعة الله .

وقد قابـله أهل القرية أول الأمر مقابلة غريبة ، وصاروا يتحاشون النظر إليه،أو الإقبال عليه،أو الاقتراب منه ، وكانوا يشيرون إلى صومعته من بعيـد ، ويخوفون أولادهم منه . .

ولـكن ما ان عرفوا حقيقة أمره ، وأنه من الزهـاد الذين طلقوا الدنيا ، وهجروا المعـاصي ، حتى تغيرت نظرتهم ، وصاروا ينظرونـه بعين الإكبار والإعجاب والتقدير ، وصاروا يلتمسون على يديه البركة ، ويتمنون لو يدعو لهم .

وشعر الراهب بقشعريرة تمر في جسده ، وبـبرودة مفاجئة ، فأسرع يوقد قنديل الزيت ، ثم يوقد النـار في الموقـد .

وعلى ضوء القنديل ، وألسنه اللهيب ، أخذ يتطلع إلى الجدران التي تحيط به ، فإذا به يشعر بالراحة والطمأنينة وشعر كأن الصومعة تعاتبه ، كأنها تناجيه ، تشكو إليـه بعده عنها .

ونهض يدور في أرجاء المكان كأنه يراه لأول مرة ، وأطل من باب الصومعة ينظر إلى السماء التي ازدحمت بالغيوم ولمعان البرق الذي يخطف الأبصار ، ودوي الرعد يهز الجبال . وأحس في نفسه رغبة ونشاطاً للعبادة ، فافترش حصيرته ، وراح يصلي بخشوع لم يعهده طيلة المدة التي لبث فيها عابداً متبتلاً ..

وكان يتحرك على سفح الجبل رجل خائف مضطرب، يسمع هزيم الرعد ، وصفير الريح ، وتكسر الأغصان ، وتدحرج الصخور ، فيزداد خوفه ، ويسير بكل ما أوتي جسمه الكبير من قوة محاولاً تسلق الجبل .. لم يستطع الاهتداء في تلك الليلة الهائجة إلى الطريق المعبد للصعود ، فأخذ يتشبث برؤوس الصخور الناتئة ، ويثبت يديه القويتين ثم يندفع بجسمه الكبير في قفزة الوحش الذي فقد صوابه .

كان رجلاً طويلاً ضخماً ، كأنه قطعة قدت من جبل ، وكانت عيونه الواسعة المتقدة ، تنظر إلى ما يحيط بها ، كان يتمتع بحذر الفأر وإحساس القط وشراسة النمر ..

وتأوه بحرقة وهو يدفع غصن الشجرة الصغيرة التي ضربته ، ووقف في مكانه ينظر إلى الصومعة التي ظنها في متناول اليد ، وأنه سيصل إليها في لحظات ، وهاهو ينهكه التعب ، ويستبد به القلق ، ولما يصل إلى نصف المسافة التي قدرها ..

وترامى إلى سمعه نباح الكلاب في القرية .. والتفت ينظر إليها ، فادرك بأن حركة غير عادية قد اجتاحتها ، وأن مجموعة من اللصوص قد داهمتها .

وعاد مرة أخرى يستأنف تسلقه في جهد ومشقة ، وكانت الريح قد اشتدت أكثر ، وأقبل من جهة الأفق الغربي الذي يُرى من فجوة انحدار جبلين شاهقين ، أقبل حشد هائل من الغيوم الثقيلة السود ، وكان البرق يسوقها فتصرخ متألمة تتلوى تحت ضرباته .

واستمر الرجل في تسلقه حتى إذا صار من الصومعة على بعد خطوات، وقف يسترد أنفاسه، ويتطلع إلى الباب الخشبي الواهن الذي مرق من بين شقوقه بصيص من الضوء الخافت ، وأحيط المكان بسكينة ورهبة ..

وأرهف أذنيه لعله يسمع شيئاً ، حركه ، همساً ، أي شيء يدل على وجود أحد داخل الصومعة. ثم تقدم بملابسه المبللة ، وجسمه الكبير الثقيل ودفع الباب .

ونظر إلى الكهف الذي اتخذه الراهب صومعة يتعبد فيها ، فرأى النار ترسل ألسنتها إلى علو قليل ، والقنديل الذي يرسل ضوءاً خافتاً ، وكانت جدران الكهف قد عني بها حتى عادت تشبه جدران الغرف القديمة .

وتطلع الرجل في الصومعة ، وقد غمرته روحانية ورهبة لم يعهدهما في حياته ، ورأى الراهب قد افترش حصيرته وراح في سجدة طويلة ، واستطاع أن يسمع صوته يدعو الله في سجوده ، فامتلأ قلبه رهبة .

لقد سمع عن الراهب من أفواه الناس قصصاً كثيرة عدّها خيالية ، أو من قبيل المبالغة . . وها هو الآن يقف أمام الرجل الذي انقطع إلى ربه ، وترك دنياه وراء ظهره إنه يريد أن يفوز برضاء الله ، أن يفوز بالجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . .

وقد وصل أخيراً ، ووجد ضالته ، فلينظر . .

هل يستطيع الراهب أن يقدم حلاً لمشكلته ؟ . .

وتنحنح بخشونة ، وهو يجيل بصره في المكان ، فإذا به لا يحتوي إلا على فراش بسيط . . وعصا . . وبعض الآنية للطعام ، وإبريق من الفخار .

وظلّ الراهب في صلاته ، موصولاً بالله تعالى ، خاشعاً بين يديه ، لم يحس بدخول الرجل، ولم يسمع نحنحته ، لأن القلب مشغول بذكر الله، وهكذا تكون صلاة الخاشعين. .

وانتهى الراهب من صلاته . . والتفت إلى الجهة التي كان فيها الرجل ، فوقع بصره عليه . . ونظر إلى قدميه الفولاذيتين ، وجسمه الضخم الذي ملأ المكان ، وملابسه التي يقطر منها الماء ، وأكتافه العريضة. . ورأسه الكبير ، ولحيته الكثة ، وعينيه الواسعتين . .

والتقت العينان ، عين الراهب التي غسلتها الدموع وأذبلتها العبادة وطول السهر والتهجد ، وعين الرجل الكبير الضخم الصارخة المتوحشة .

وتملل الراهب مبتسماً ومرحباً ، وأشار بيده يدعوه الى الجلوس :

ـ تفضل .

ثم التفت إلى صُرّة في ناحية من الكهف وقال :

ـ سأقدم لك طعاماً .

تقدم الرجل خطوة وهو يقول :

ـ لا أريد طعاماً .

ثم انحنى أمامه وأضاف بصوت متهدج :

ـ أريد أن أتوب

قال الراهب ، وقد أطرق برأسه ينظر إلى النار في الموقد :

ـ ومن الذي يمنعك من التوبة ؟

وعاد بنفس الصوت المتهدج :

ـ ولكني مذنب . .

قال الراهب وهو يشير بيده :

ـ كلنا مذنبون يا بني .

وجثى الرجل على ركبتيه ، وقال بصوت تخنقه العبرات :

ـ إن ذنبي عظيم .. إنني مجرم ، وأخاف أن أموت فأُلقى في النار .

وتصور الراهب ألسنة اللهيب ترتفع إلى عنان السماء ، وأفواج المعذبين يقذفون في النار ، وهم يصطرخون فيها ويبكون .. فغطى وجهه بكفيه وراح يبكي ..

ولما سمع الرجل نشيجه قال :

ـ أنت تبكي .. أنت الرجل العابد الذي قضيت عمرك في العبادة تبكي ؟!

فكفكف دموعه وقال :

ـ والله إنها لموعظة .

وعاد الرجل يتوسل :

ـ قلت لك إنني مذنب ، وأريد أن أتوب .. فهل لي من توبة

ورفع الراهب يده وقال :

ـ إن باب التوبة مفتوح يا بني :

ثم انصرف إلى أدعيته،يسبح الله بصوت أشبه بالهمس،

وكان وجهه نحيفٌ مضيئاً ، تنعكس أشعة اللهيب عليه فتزيده روعة ومهابة. وكانت لحيته التي أتى عليها الشيب، تحيط بوجهه ، وتتدلى قليلاً عند ذقنه .

وأرسل الرجل زفرة حارة وهو يقول :

ـ إنك لا تستطيع أن تتصور عظم الذنوب التي تراكمت على قلبي . . إنك لا تدري كم عانيتُ حتى دلوني عليك ، حتى وصلت إليك . إن ذنوبي تلاحقني .. تكاد تخنقني .. إنني أشعر كأن الدنيا كلها .. بأرضها ، بسمائها ، حتى الرعد القاصف يصرخ بي : أنت مجرم .

وسكت الرجل قليلاً ، وقد أخذ صدره العريض يعلو ويهبط ، وكان الرعد يهز بدويّه الجبال ، وصوت الرياح تصفر ، والصخور الصغيرة تتدحرج ، والمطر ينزل إلى الأرض كأفواه القرب ..

وبقي الراهب ينظر إلى الرجل دون أن يجيبه . . أما هو ، فقد عاد إلى توسله يقول :

ـ سأقص عليك قصة حياتي .. إنني ..

ورفع الراهب يده يشير عليه بأن يسكت :

ـ لا .. لا أريد أن تذكر لي شيئاً . . إنها أمور بينك وبين ربك .. وهو يقبل التوبة من عباده .

وضرب الرجل على رأسه بكفيه الضخمتين ، وقال بصوت غاضب عالٍ :

ـ لا أستطيع .. لا أستطيع ..

إن لي ماضياً سودته الجرائم . . أريد عرضه عليك لأعرف هل لي من توبة أم لا ؟

ثم نظر إلى الراهب وقد تغير لونه ، وتهدج صوته وقال وهو يرفع يده في وجهه :

ـ أتدري من أنا . . أتدري من الذي يكلمك . . إنني قاتل.. لقد قتلتُ تسعة وتسعين نفساً. .فهل لي من توبة؟!!

* * *

جريمة في الصومعة

وذعر الراهب وهو ينظر الى وجه الرجل الغريب ، وكانه ينظر الى وجه الشيطان ، بل كانــه ينظر إلى الشيطان نفسه ، وتراجع الى الوراء ثم نهض ولصق ظهره بجدار الكهف ، وأخذ يردد :

ـ أنت قاتل ..

وكان الرجل جاثياً مكانه ، وقد رفع يديه فوق اللهب يستمد بعض الدفء . وأخذ الراهب ينظر الى يديه اللتين بدتا له بلون الدم .

ـ أنت قاتل ..

وهتف الرجل :

ـ ألم أقل لك اسمع قصتي ..؟

وهز الراهب يده وهو يقول :

ـ لا .. لا أريد أن أسمع قصتـك .. فأنت مجرم ..

أنت قاتل .. كيف تريد أن يغفر الله لك ؟ !!

ونفدَ صبر الرجل ، وصرخ غاضباً :

ـ أريد أن أتوب

وأشار الراهب بيده :

ـ اخرج من هنا .. اخرج .. أي توبـة هذه التي تستطيـع أن تكفر عن ذنبك .. تغسـل خطيئتك . اخرج .. لا أريد أن أراك ، فأنت مجرم .

واشتد غضب الرجل .. وتحول الى كتلة من القسوة والوحشية ، ورفع جسمه الكبير ، ونهض وهو يقول :

ـ لقد قتلت تسعةً وتسعين نفساً ..

وتصور الراهب كومـة من الجثث يجري من تحتها بحر من الدماء ، والرجل الغريب واقفاً شاهراً سيفـه متعطشاً الى المزيد ..

فصرخ الراهب :

ـ اخرج .. لا تدنس صومعتي بأقدامك ، لا تلوث هوائي بأنفاسك .. اخرج من هنا فأنت شيطان .

ثم هجم عليه يدفعه بكل ما أوتي جسمه النحيف من

قوة ، بينما وقف الرجل الضخم كالصخرة العنيدة لا يتحرك وابتسامة الحزن واليأس والمراره ترتسم على وجهه بشكل كريه ..

ثم قال بصوت كأنه حشرجة الموتى :

ـ أما وقد أغلق في وجهي باب التوبة ، فسأكمل بك المائة ..

وأطبق الرجل يديه الفولاذيتين على عنق الراهب، وضغط عليها بكل قوته المتمردة ، وأحس بشيء يتحطم تحت أصابعه ..

وكانت يد الراهب تتشبث بصدر الرجل وساعده ، ثم أخذ يرفس برجله ، وقاوم لحظات ثم رجف جسمه النحيل رجفه أخيرة ، وتخاذلت يداه الى جانبه بعد أن جحظت عيناه ، وتحول وجهه إلى ما يشبه الدم .

وضربت الرياح باب الكهف ، وارتفعت ألسنـة اللهيب ، وسقطت العكازة المعلقـة على الجدار ، ووقع الراهب على وجهه فوق الحصيرة مرتطماً بموضع سجوده ، ومرت بجسمه رجفةٌ خفيفة ، ثم خمد .

وارتفع صوت الرعـد غاضباً مزمجراً ، وصفرت الريح ، وهيء له أنه يسمع صوتاً من بعيد ، صوت رجل يستغيث ..

وأخـذ يفكر مع نفسـه .. أين سمع هذا الصوت ؟ ومتى سمعه ؟ ..

ونظر إلى الراهب الذي فارق الحياة ، وتلفت في أرجاء المكان ، فإذا كل شيء عابس متجهم ، حتى النار في الموقد أخذت بالتلاشي ..

وأدار ظهره وخرج من الكهف ، ورفع رأسه ينظر الى السماء المزدحمة بالغيوم الرمادية الداكنة ، وقد حاول القمر جاهداً أن يطل بوجهه ، فإذا بها تطبق عليه وتخنقه فلا يبدو منه شيء ..

وضرب البرق بسوطه ظهرها ، فرأى الرجل على ضوئه قمم الجبال الهائلة ترتفع بشكل رهيب ، وتبع البرق رعدٌ قاصف ورياح شديدة ، وبدت له قمم الجبال كأنها عفاريت ضخمة تقطع عليه الطريق ، فشعر بخوف مفاجىء ، شعر بخوف من ذلك النوع الذي ينشب مخالبه في كل

ذرة من جسم الإنسان ، فلا يدع له مجالاً للتفكير ..

شعر كأن الأرض والسماء والغيوم والأحجار ..

كأن كل ما يحيط به .. حتى الأشجار الصغيرة تصرخ به : _ قاتل .. مجرم ..

وتمنى لو طلع النهار .. لو استطاع القمر أن يمد رأسه من بين الغيوم ، لو لاح له ضوء .. أي ضوء ..

وأخذ يهبط الجبل وهو يتعثر ، والرياح تصفر في وجهه ، والصخور الناتئة تنتاش جسمه ، وتعثر في سيره ، ثم فقد توازنه فتدحرج .. ولكنه استطاع أن يتشبث بصخرة كبيرة منعته من أن يهوي الى سفح الجبل !

إنه لم يشعر في يوم من أيام جرائمه السابقة بمثل هذا الخوف ، هذا الخوف القاتل الذي شلّ تفكيره ، ولكن .. لماذا هذا الخوف ؟

وأراد أن يعيد الثقة الى نفسه ، أن يذكّر نفسه بمواقفه البطولية ، بجرأته الفائقة .

ولكنه تخيل كأن المكان قد امتلأ بالرهبان ، والراهب الشهيد محمولٌ على خشبة فوق رؤوسهم . كانوا يتجهون

إليه ..

كانت مسيرة صامتة ..

وغطى وجهه بكفيه الضخمتين ، وأغمض عينيه ، ثم ضرب رأسه بقوة ، وقد ضاق بهذا الشعور بالضعف .

ويبدو أن الألم قد أعاد له بعض صوابه ، فأخذ يفكر في هدوء :

إنه لم يقتل الراهب ..

إن الراهب لم يمت ..

إنه لا يزال حياً ..

لقد تركه هناك قرب النار ، فليعد إليه ، ويسأله هل له من توبة ؟

ولشد ما كانت دهشته عندما وجد الطريق المعبد الموصل الى الصومعة الى جانبه . فقويت همته ، وازداد عزمه على العودة الى الصومعة ، فأخذ طريقه إليها ..

حتى اذا وصل الى الباب المفتوح ، وقف قليلاً قبل أن يلقي بنظره الى الداخل .

وأخذ يفكر ..

ماذا سيقول للراهب إذا وجده حياً ؟

سيقول إنها ساعة جنون لم يتمالك فيها أعصابه ، وإن الراهب الطيب القلب سيقبل عذره .

ولكن ماذا لو وجده ميتاً ؟

واستبعد هذه الفكرة من رأسه ..

وقام في نفسه ما يشبه اليقين بأن الراهب حي .. انه يكاد يسمع صوته ، ربما عاد الى صلاته ...

سيتأكد من هـذا بنفسه ..

ودخل الكهف ..

ورأى الراهب ممدداً لا يبدي حراكاً .

وانحنى عليه .

كانت النار في الموقد قد خمدت الا بقية من لهب ضئيل يضيء قليلاً ، وقنديل الزيت يلفظ أنفاسه والعكازة ملقاة ، والراهب منكفىء على وجهـــه فوق الحصيرة في موضع السجود ..

وقلّبه برفق ..

ونظر إلى وجهه ..

رأى ابتسامة مطمئنة تغمر وجهه بنور هادىء . . .

رأى وجه الراهب قد عاد مضيئاً لطيفاً كما رآه أول مرة ..

وظنه حياً ..

فقال يستعطفه :

– سيدي الراهب .. اغفرلي ..

ووضع يده على صدره ، ثم انحنى عليه ووضع اذنه اليمنى على موضع قلبه ..

فلم يسمع شيئاً ..

إن الراهب قد فارق الحياة ..

وعاد مرة اخرى يسمع ذلك الصوت ، صوت الرجل الذي يستغيث ، وعاد يسأل نفسه : أين سمع هذا الصوت ؟

وبدلاً من أن يشعر بالخوف ، أحس بالهدوء والسكينة، بدرجة لم يشعر بمثلها في حياته . .

ونزلت دمعة ساخنة على خده ، وانحنى يقبل الراهب

من رأسه ..

ثم تلفت في أرجاء المكان المظلم إلا من بصيص منبعث من القنديل ، فوجد قطعة قماش مهلهلة ، نشرها على الراهب ، ونهض وهو يحدّث نفسه ، كيف اعتدى على الرجل الذي كان يرجو على يديه التوبة ؟

ووقف على باب الكهف ، فإذا الرياح قد هدأت ، والسماء بدأت ترسل زخة خفيفة من المطر . .

فاخذ الطريق المعبد ، ومضى يهبط بهدوء وقد ازدحمت في رأسه دوامة من الأفكار ، حتى اذا وصل الى سفح الجبل وقف هنيهة .. وأدار ظهره ، ينظر الى الصومعة . وبقي لحظات ينظر الى المكان الذي ارتكب فيه جريمته .

وخُيّل إليه كأن الغيوم قد أخذت تهبط على الكهف، وأرتالاً من الملائكة تحمل روح الراهب الشهيد وتصعد بها الى السماء ، ونظرات ساخطة تأتيه من كل مكان .

فدب الرعب في نفسه من جديد ، وتلفت حوله ، وهُيء له كأن قمم الجبال تريد أن تطبق عليه ...

فاندفع يركض صوب القرية ، وتعثر في طريقه . .

كان يعدو بعنف وقوه . .

كان يود لو طار الى القرية . .

لو استطاع ان يطير كما يطير في الأحلام عندما يداهمه خطر !! كان يشعر بشيء يلاحقه . .

بوقع أقدام ثقيلة مع أصوات مختلطة لا يفهم منها شيئاً .

إنه لا يريد أن يلتفت

ولا يريد أن يقف

ولا يريد أن يموت . . . .

ولكنه كان يشعر كأن الشيء الكبير الثقيل الرهيب الذي يلاحقه سوف يمسك به لا محالة . .

فازداد قوة في اندفاعه وركضه ، واصبح من القرية على مرمى العصا .

ها هي أنوار البيوت تتلألأ من خلال النوافذ . .

ولكن هدوءاً مقيتاً خيم عليها وأخرسها . .

حتى الكلاب لم تعد تنبح . .

كان يريد أن يستأنس بأي شيء . . أي شيء يعيد اليه نفسه !

أراد أن يصرخ .

أن يستنجد . .

حتى الصوت قد جف في حلقه فلم يعد يستطيع أن يصيح . وتمنى لو أن جيشاً من الكلاب هجم عليه ، اذن لارتاح الى نباحها . . .

ولكن . . .

* * *

الباب الضيّق

استمرت السيول تجري نتيجة الأمطار التي سقطت ، وعاد المطر خفيفاً لطيفاً ينزل برفق بالغ . والغيوم السود الداكنة ذهبت مع الريح الى مكان بعيد ، وحلت مكانها غيوم بيضٌ نقية .

كانت بيوت القرية تنحدر على سفح الجبل ، والظلام مخيماً عليها ، إلا قليلاً من الضوء تسمح به بعض النوافذ والأبواب .

وقد نشرت الغيوم البيض غلالة رقيقة على وجـــه القمر ، لم تستطع أن تحجب جماله وروعته ، وما عدا ذلك لم يُسمع الا وقع أقدامه الثقيلة وهو يعدو والأرض «تهش» من تحته .

كان الخوف يسيطر عليه وهو يندفع نحو أقرب بيت وصله من القرية ، وألقى بنفسه على الباب وهو يلهث

والعرق يختلط بقطرات الماء الساقطة على وجهه وجسمه الكبير .

وطرق الباب بقبضة يده ،كان يود لو وجده مفتوحاً، كان يريد أن يتمتع بشيء من الأمن والطمأنينة ..

وعاود الطرق ، فسمع صوت المزلاج يرفع ثم يفتح الباب بصرير مزعج ..

وظهر رجل قصير بدين صغير العينين. .وما أن رآه على تلك الحالة ، وصعدت إلى أنفه رائحته الكريهة حتى اختفى وراء الباب وأغلقه بسرعة وثبت المزلاج وراءه .

وسمع حركة أقدام وأشياء كثيرة تكوّم وراء الباب.

وتراجع عن الباب وهو يشعر بالحقد والكراهية ، واندفع يلقي بجسمه الكبير الثقيل عليه فلم يفلح في زعزعته ... ثم أخذ يضربه بقبضة يده ويصرخ كالوحش المهان :

ـ افتح الباب .. افتح !

وهجمت عليه الكلاب تحيط به وهي تنبح ...

واستيقظت القرية كلها ، ودبت الحركة داخل البيوت ، واضيئت بعض المصابيح ، وحملقت عيون تنظر من خلال النوافذ وشقوق الأبواب ، إلا أن باباً واحداً لم ينفتح ، وظلت جميعها مغلقة .

وعادت اليه وحشيته ، وذهب ما به من خوف ، وأخذ يرفس الكلاب وكأنه يقاتلها ، فهربت مذعورة ، ووقفت على بعد غير قليل تنبح عليه ..

وسار وهو يضرب الأبواب بقدمه، ورفع يديهوصرخ بصوت كقصف الرعد :

ـ ساحطمكم كلكم .. ساهدم عليكم بيوتكم .

واندفع كالثور الهائج ، وقد تفجر في نفسه بركان من السخط والثورة ..

ولم يجرؤ كلب واحد على الاقتراب منه !.

كان منظره يثير الرعب في اقوى القلوب جلادة ،

كان يريد أن يحطم هذه الأبواب .

أن يهدم البيوت على رؤوس أهلها .

أن يحرق القرية بمن فيها .

كان في سيره يتلفت نحو البيوت التي عادت تطفىء انوارها وتحكم غلق أبوابها ، ومن وراء النوافذ تنظر اليه عيونٌ متلصصة وهي تحبس أنفاسها .

وقد أثاره هذا الجو الذي خيم على القريـة ، وزاد في عنفه وثورته ، والكلاب تتبعه ولا تكف عن النبـاح ، وصوت أقدامه الثقيلة وهي تترك أثراً غائراً في الأرض .

ووقعت عيناه على باب انفرج عن فتحـة صغيرة .. فنظر اليه بارتياح ، وتنهد ، وتقدم نحوه وقـد عزم على اقتحامه والبطش بكل من في الدار .

.. واقترب من الباب بحذر ، وكأنه يخشى أن يغلق في وجهه فتفوته الفرصة ، وألقى بجسمه الثقيل عليـه ، فانفتح بقوة ، وارتطم بالجدار .. ووجد نفسه يقف داخل البيت ! ومضى يجول ببصره متعطشاً الى البطش ، ليطفىء النار المتاججة في نفسه .

وقف بجسمه الكبير وشعره المنفوش ولحيته الكثـة .. ونظر ..

فاذا بطفلة تهرع اليه وهي تقول :

ـ ان امي تعاني من آلام الوضع .. هل تستطيع أن تأتي بالقابلة ؟

وتكسرت أمواج ثورته العاتية على ساحل عينيها المسليتين اللامعتين ..

وبقي في مكانه لا يتحرك .. بينما راحت الصغيرة تستحثه بقولها :

ـ بالله عليك .. إن امي ستموت ... ألا تريد ان يغفر الله لك ؟

بلى أريد ..

ألا تريد أن يغفر الله لك ؟ .. والله أريد ..

ولكن .. هل يغفر الله لي ؟!

لي أنا ؟!..

وعاد الى سمعه مرة اخرى ، صوت الرجل يستغيث .

أين سمع هذا الصوت ؟ ومتى سمعه ؟

وترامى الى سمعه صوت المرأة تصرخ من الألم ، فكاد قلبـه يتمزق ، ووقف متحيراً ، ثم تراخى في وقفته ، وجلس مستنداً الى الجدار .

وعادت الصغيرة تضع يدها على كتفه وتقول له بكل رقة ولطف ووداعة :

ـ هل أنت جائع ؟

ثم ركضت برجليها الصغيرتين ، وسمعها تخاطب أمها وتقول :

ـ لقد حل عندنا ضيف . . وسيذهب لاستدعاء القابلة

لم يعد يسمع صوت الكلاب التي كانت تثيره وتزعجه، ولم يعد يسمع صوت الرجل يستغيث. .ولكنه سمع بعضهم يتهامسون :

أين ذهب الغريب ؟ !

وعادت الصغيرة تحمل بيـــدها إناء لبن ورغيفاً من الخبز وضعتها أمامه وهي تقول :

ـ هل تريد أن تأكل قبل أن تأتي بالقابلة ؟

ثم انحنت تمسح أنفها بطرف ثوبها ، ورفعت رأسها وقد توردت أرنبة أنفها وقالت :

ـ لماذا لا تأكل ؟

كان صوت المرأة المتألمة يمزق قلبه كلما أخذت تصرخ أو تستنجد ، كانت تحاول أن تحبس صوتها دون جدوى .

كان ينظر الى قنديل الزيت الذي يرسل ضوءاً خافتاً، والاثاث البسيط الذي يحتويـه البيت ، والقطـة السوداء التي وقفت تنظر الى الطعـام وهي تهز ذيلها وتموء . . والصغيرة التي تستحثه بنظراتها المتوسلة .

وانحنى على إناء اللبن فرفعـه الى فمه وشربه دفعـــة واحدة ، ثم مسح فمه بطرف كمه وقال :

ـ ولكن لا أدري أين يقع بيتها ؟

قالت وهي تسحبه من يده مستحثة له على النهوض :

ـ أنا أذهب معك .

وطارت إلى أمها تقول :

ـ سأذهب مع ضيفنا لاستدعاء القابلة ..

وعادت إليه ، فرأته ينتظرها .

واحتوت يدُه الكبيرة الضخمة يدَها الصغيرة الناعمة، وسار معها وهو يشعر بالهدوء والسكينة ، وبشيء يغمر قلبه ويشعره بارتياح لذيذ ..

كان المطر قد انقطع تماماً ، وتناثرت السحب تطرز ثوب السماء ، وبرز القمر ضاحكاً منتعشاً يرسل نوره الفضي فيغمر الكون .

ومضت الطفلة تسير معه وهي تزقزق بحكايات لطيفة ، وتشير بيدها الى بعض البيوت ، وتقص عليه كيف سرق بعض الأطفال دميتها المصنوعة من الصوف .

وكانت تفر من يده لتشير الى مكان معين وتقول :

ـ هنا كنا نلعب .. هناسقطت دميتي .. هنا .. هنا .

كان يستمع إليها ويود لو شاركها مرحها . يود لو كانت له طفلة جميلة صغيرة مثل هذه .. بلون شعرها .. بصفاء عينيها .. بـ ..

ولم يشعر إلا وهي تقول : له

ـ ها قد وصلنا .. هذا بيت القابلة .

ونظر . .

فإذا بها تشير الى البيت الذي حاول اقتحامه أول مرة فاغلق في وجهه . .

فانحنى يمسح على رأسها بكل ما أوتي قلبه المكدود من

حنان ، وقال بصوت اجتهد أن يكون خافتاً :

ـ اذهبي وحدك .. سأنتظرك هناك .

وركضت الصغيرة الى الباب ، تدقه ، وتصيح . .

فانفتح الباب قليلاً ،وأطل رأس الرجل البدين وهو يقول:

ـ ما الذي جاء بك في هذه الساعة ؟

قالت :

إن أمي تلد .. وتريد أن تأتي زوجتك لتساعدها . .

ونظر إليها متحيراً ، وكانت زوجته تقف وراءه . .

ـ ولكن كيف وصلت الى هنا ؟

لقد كان في القرية رجل شرير اراد أن يقتحم علينا بيتنا !! هل رأيته ؟

وهزت رأسها تقول ببراءة الطفل الوديع :

ـ كلا لم أره .. ان أمي تعاني من آلام الوضع ..

إنها تلد .

وعاد الرجل يقول :

ـ كيف وصلت الى هنا ؟

قالت وهي تشير الى الناحية التي وقف فيها رفيقها :

ـ إن معي ضيفنا وهو الذي أوصلني ... انـه رجل طيب ..

وارتاح زوج القابلة الى كلامها ، والتفت الى زوجتـه يقول :

ـ أرى أن تذهبي معها .

وما هي إلا لحظات حتى خرجت القابلة تلم اذيالها من الوحل .. واقبلت الصغيرة معها وهي تشير بيدها وتقول:

ـ ان ضيفنا رجل طيب ، وهـو الذي ساعدني على المجيء في هذه الساعة من الليل .

وسألت القابلة :

ـ وأين هو ؟

فاشارت بيدها الى ناحيته ..

والتفتت القابلة تنظر إليه ..

وما أن رأته حتى صرخت وعـادت مذعورة تتعثر باذيالها ، وأخذت تضرب على البـاب مستحثة زوجها على فتحه بسرعة .

وفتح الباب ، فدخلت البيت وأغلقت الباب وراحت تكوم وراءه قطعاً من الأثاث والحجر والأخشاب .

ولم تفهم الصغيرة سر هذا الأمر

ووقفت متحيرة وهي تقول :

ـ لماذا هربت ؟

فهز رأسه وهو يجيب بصوت اجتهد أن يكون هادئاً قدر الامكان ، وقال :

ـ لعلها رأت شيئاً

وتلفتت الصغيرة حولها ثم قالت :

ـ ولكنك معنا ؟

وأرادت أن تعود إليها .. ولكنه جذبها من يدها برفق وقال :

ـ لا تتعبي نفسك .. إنها لا تريد أن تأتي .

ورضخت الصغيرة وعـادت ، وهي لا تدري شيئاً مما حدث ، لا تدري لماذا هربت القابلة .

ورفعت رأسها الى السماء ، وقالت بكل ما في قلبهـا الصغير من طهر وبراءة وألم :

ـ ماذا نعمل يا ربي ..

ووقع نور القمر على وجهها الصغير فأضاءه ، واستطاع الرجل أن يرى شعرها الذهبي يلمع ، ووجهها الجميل فيه معاني الاستغاثة والتوجه الى الله .

وأحس في قرارة نفسه ، أن الله لا يتخلى عن هذه الطفلة البريئة الوديعة الطيبة .

واحتضنت يده يدَها ، وعاد وهو يبكي في نفسه على نفسه . لماذا يهرب منه الناس؟

وعندما وصلت الصغيرة الى البيت تركت يده وركضت لتخبر امها .. ولشدما كانت دهشته عند عادت بنفس السرعة التي ذهبت بها وهي تصيح جذلاً :

ـ لقد وضعت امي طفلاً ..

وابتسم وهو يرفع رأسه الى السماء ..

ما أسرع ما استجاب الله دعاءها .

وتمتم بصوت خفيض :

ـ الحمد لله .

ثم ألقى بجسمه الكبير في زاوية من البيت .. وسمع

صوت امرأة عجوز تدفع الباب وهي تقول :

ـ ماذا حدث ؟

وقفزت الصغيرة فرحاً :

ـ لقد وضعت امي طفلاً .

وسمع صراخ الطفل .

وفتحت صفحة جديدة في سجل الزمن ، لطفل ولد في ليلة ممطرة ، وحدث داهم القرية ، وغريب مخيف حل فيها ..

وتمدد مكانه بعد أن سحب وسادة وضعها تحت رأسه ، وراح في نوم ثقيل .

كان يشعر أن باب التوبة باب ضيق لا يدخله كل أحد ، وأن هذا الباب قد أغلق في وجهه الى الأبد .

ولكن الطفلة قد ايقظت في نفسه بارقةً من الأمل جعلته يشعر أن باب التوبة قد انفرج عن فتحة صغيرة يستطيع ولوجها فيما اذا عرف الطريق اليها .. ولكن ..

من الذي يهديه الى الطريق ؟ !!

بداية الطريق

ألقت الصغيره نفسها على فراشها البسيط ، وطارت بروحها اللطيفة الى عالم الأحلام . وبقيت العجوز تعنى بالطفل الى جانب امه التي انهكتها الولادة ، فاسترخت بجسمها المهدود لكي تتمتع بقسط من الراحة ، ولكي تسترق لحظات من النوم عندما تكف العجوز عن ثرثرتها التي لم تنقطع طوال المدة التي لبثت فيها .

وكانت ثرثرتها من النوع اللطيف المحبب الى الأمهات .. تحدثت عن الطفل وقد صار رجلاً قوياً مهاباً محارباً .. وتخيلت الأم ذلك اليوم ، وتمنت لو أن الله العلي القدير حقق مرادها .

والتفتت العجوز تسأل الأم :

ـ من هذا الرجل النائم قرب الباب ؟

وتنهدت الأم وقالت :

ـ ألم يذهب بعد ؟ لقد أتعبناه هذه الليلة .

وسحبت الغطاء قليلاً ثم أضافت :

ـ انه ضيف غريب ، ذهب مع الصغيرة الى القابلة فرفضت أن تجيء .

وضربت العجوز بيدها على صدرها وقالت في دهشة وتعجب :

ـ رفضت .. لماذا ؟ !!

وتململت الأم في فراشها وقالت :

ـ لا أدري .

ورفعت العجوز يدها تهرش رأسها باطراف أناملها وهي تقول :

ـ انه يبدو متعباً .

ـ إنني لم أره بعد .. لم أستطع أن اغادر حجرتي .

ونهضت العجوز تطل برأسها من باب الحجرة وهي تنظر اليه بعينيها الذابلتين وأنفها المعروق الذي انتشرت على جوانبه شعرات تشبه شارب القط .

ـ إنه نائم .. إنه ينام نوماً ثقيلاً . إنه يبدو وكأنه ينوء تحت حمل ثقيل .

ثم وجهت الخطاب الى الأم وهي تقول :

ـ ان لهذا الرجل قصة ، سيحدثنا بها عندما يستيقظ

وابتسمت المرأة وقالت :

ـ وما يدريك انه سيتحدث ؟

فاجابت دون أن تلتفت :

ـ ان السر الذي يكمن في صدره ، قد وصل حداً لا يطيق البقاء في سجنه .

وارتفع صراخ الطفل يشق هدوء الليل ، وهرعت العجوز تسكته وكأنها تحتج :

ـ لا .. لاتبك .. لم يبزغ الفجر بعد ، مهلاً مهلاً .. سوف ينتظرك الأولاد ولا يغادرون القرية قبل حضورك.. قلت لك لا تبك ... انهم هناك... ستذهب معهم الى المرعى .

وابتسمت الأم ابتسامة مريحة هادئة ،

أين أبوه الآن ؟ .. لقد ذهب الى المدينة قبل أيام ،

ذهب ليبيع بعض الحبوب ، وليجلب من هنـــاك ثوباً للبنت ، وبعض حاجات للمنزل .

هل يدري أن قد جاءه ولد ؟ .

إنها تتذكر تلك الليلة التي بقي فيهـا ساهراً طول الليل ، رافعاً يـديه الى السماء ، متضرعاً الى الله ، ممرغاً وجهه أحياناً ، سائلاً الرب ، رب السماوات والأرض .. أن يهب له ولداً ذكراً يعينه على نوائب الدهر .

لقـد شعرت المرأة .. بل أيقنت ، أن الله استجاب دعاءه .. أم من يجيب المضطر إذا دعاه ؟؟

وانتقلت بأحلامها الى ذلك اليوم ، الذي سيقف فيـه ولدها .. طويلاً ، قوياً ، رائعاً ، أشقر الشعر ، ازرق العينين ، أقنى الأنف ..

ورفعت يدها تتلمس أنفها ، ليكن مثل أنفها ..

سيقول لها بلهجة أبيه القوية المحببة :

ـ اسرعي يا أمي .. أين الطعام ؟ فاني اريد أن ألحق بإصحابي الى المرعى ، الى وراء الجبال .

وارتفع صوت الرجل يسعل بشدة ، وسكت الطفل.

وأسرعت العجوز تخرج من الحجرة وتقول :

ـ قد أيقظك رب البيت .. أليس كذلك ؟

ونظر اليها الرجل بعينين منتفختي الأجفان،واعتدل في جلسته وقال :

ـ وأين هو رب البيت .. أنني لم أره .

فأشارت بيدها ، وكأنها تحتج :

ـ لا .. لاتنكر .. ألم تسمع صوته قبل قليل ؟

وابتسم ابتسامة ملأت وجهه وقال :

ـ أرجو الله أن يجعله من أبناء السلامة .

وجلست العجوز ، ثم تـدنت ، ولمت أذيالها ، حتى أصبحت قريباً منه وقالت :

ـ اني أرى في أعماقك شيئاً يريد أن يخرج ..

وأراد أن يتكلم ، ولكنها مضت في حديثهـــا وهي تشير بيدها أن يسكت :

ـ لا .. لا .. أعني أن شيئاً .. سراً يكمن بين جنبيك يريد أن يخرج ، أن يشق طريقه نحو النور .

لقد مضت عليه مدة لم يعد يطيقها ..

إنه ضاق بك .. وضقت به ..

فلا هو يستطيع أن يخرج ، لأنك احكمت غلق صدرك عليه ! ولا تستطيع ان تخرجه لأنك ضيعت المفتاح .

وتركته ينظر اليها مشدوهاً ، ثم نهضت تفتح الباب ، وتنظر الى الأفق البعيد .. ثم تمتمت ، وكأنها تخاطب نفسها :

– ها هو الفجر قد مدّ يده ليمسح عن وجه الكون ظلام الليل .

وتنهد الرجل وهو يعصر صدره بيديه :

– أريد أن أتوب ..

إن قلبي يحترق ، إنني اشعر كأن ذنوبي قد تحولت الى جبل عظيم ، وانني كلما ارتكبت ذنباً كلما ازداد الجبل هولاً !

إنها تريد أن تنقض علي تريد أن تهدمني ..

إنني أشعر كأن كلّ حفرة أمر بها تريد أن تبتلعني ، أن تذهب بي الى الجحيم ..

وأقبلت العجوز تقاطعه باشارة من يدها الذابلة :

– لا .. لا تيأس .. ان رحمة الله قريب من المحسنين .

– ولكنني مذنب .

ونظرت إليه نظرة قاسية ، كأنها تؤدب طفلاً كبيراً ارتكب حماقة منكرة ، وقالت :

– كيف تقول هذا ؟ .. انه ليس مع التوبة ذنب .

ان ربنا غفور رحيم .

وشعر بكلماتها تنزل على قلبه المضطرب ، كقطرات الماء البارد في صيف ملتهب .. وقال وهو يميل برأسه اليها :

– أريد أن أسأل رجلاً عالماً .. أعلم أهل الأرض .. أسأله هل لي من توبة ؟ ..

اني أكاد أجن ..

انني أشعر كأن جمرة من نار جهنم قد استقرت بين ضلوعي ، فلا تكاد تخبو الا لتثور وتلتهب وتحرقني ..

وسكت قليلاً ، وقد وضع يده اليمنى على قلبه وعاد يقول :

ـ انني احترق ..

انني أشعر كأن كلّ ذنب ارتكبته قد تحول الى جمرة، حتى الأرض التي أسير عليها أشعر بحرارتها ، انني لا استطيع الهروب من الله .. لا استطيع الهروب من الله الا اليه ..

وضربت العجوز بكفها الذابلة على كتفه وقالت مبشرة :

ـ ان كلامك هذا ، هو أول التوبة .. انه بداية الطريق الى الله ..

فلا ترجع يا بني .. لا ترجع الق بنفسك بين يدي الرحمن الرحيم ، وتمرغ على أعتاب رحمته .. وناده بقلبك المنيب : وعزتك وجلالك لا أعود حتى تغفرلي .. أرأيت الى الأم كيف تسرع الى طفلها تحمله وتقبله وتمسح التراب عن وجهه ، عندما يعود اليها ، ويلقي بنفسه على بابها ، وقد أقر بذنبه واعترف بخطئه ؟! الله يا بني .. أرأف بك

من هذه الأم بولدها .

وتسلل ضوء الفجر من الباب المفتوح ، وهبت نسمة باردة منعشة ، فلعبت ذبالة الضوء في القنديل ، ونشرت ضوءاً مريحاً في أرجاء المكان ، وسمعت أسراب العصافير تزقزق في ذلك الصباح الجميل ، وافتر ثغر الفجر عن ابتسامة حلوة مصبوغة بحمرة خفيفة .

وتبسم الرجل الكبير .. وتدحرجت على خده دمعة صغيرة . ونظر الى العجوز نظرة حب وامتنان ..

لقد فتحت امامه الباب واسعاً واسعاً ، وشعر بثقل هائل يزاح عن كاهله فيخف جناحه ، وترفرف روحه تريد أن تحلق الى عالم جديد ، عالم الملائكة والرحمة ، والعودة الى الله .

ووصوصت الصغيرة وهي تتقلب على فراشها ودبت في القرية حياة جديدة ، تستقبل اليوم الجديد ، والوليد الجديد .

ونهضت العجوز تقول :

ـ إنني أعرف رجلاً عالماً .. إنه يسكن في تلك القرية الكبيرة .

وأشارت بيدها الى ناحية بعيدة . والتفتت تنظر اليه تستحثه على النهوض :

ـ إنها في تلك الناحية إنها قريبة ، سيجيبك الرجل عن كل شيء .

وأراد أن ينهض ، وحرك نفسه مستنداً على كفه الأيمن . ولكنه تذكر شيئاً !!

تذكر شيئاً جعله يعود الى مكانه ، وتعود اليه كآبته وتخيم عليه غمامة من الحزن ..

وأطلق حسرة محرقة ، وقال كمن فقد الأمل بالنجاة :

ـ لقد رأيت هذه الليلة رؤيا ..

ونظرت اليه العجوز ، وقد هالها ان ينهد هذا الجبل العظيم في لحظة واحدة !ان حياته تبدو سلسلة من المتاعب لا تنقطع ، انه يبدو تماماً كما عبر عن نفسه ، انه يحترق . ولكن ما هي المادة التي تستطيع ان تطفىء هذا الحريق ؟ أو على الأقل توقفه عند حده ؟

وأقبلت العجوز تقول :

ـ وما رأيت ؟

ومضت تستحثه ، وهي تأمل أن تعثر في هذه الرؤيا على المفتاح الضائع .. لكي تستطيع ، أو يستطيع هو أن يخرج هـذا السر الحبيس .. السر المسجون في صدره ، والذي اوشك أو قارب على الانفجار .

انها تريد ان تخرج هذا السر مع نور الفجر ليتبدد كما تبدد الظلام ..

وعادت اليه ، ولم تعد تصبر ، وأقبلت عليه بكل جوارحها ، تستحثه على الكلام وتقول :

ـ وما رأيت ؟

ونظر اليها ، وكأنه يريد أن يستحضر رؤياه كاملةً ، كأنه يريد أن يجمع خيوط ما رآه ، فينسج منها حديثاً متصلاً قد لا يعلم هو أهميته .

وازداد حماسها الى سماع الرؤيا ، وهزته بيدها كأنها تريد أن توقظه .. أن تعيده الى نفسه ..

وقالت :

ـ أنت رأيت رؤيا ، أليس كذلك ؟

فهز رأسه وقال ، وكانه ما زال في نومه :

ـ لقد رأيت الليلة رؤيا ..

وعادت تهزه مرة اخرى،وقد نفد صبرها، وصرخت في وجهه :

ـ وما رأيت ؟

* * *

يقظة القلب

ـ إني رأيت فيما يرى النائم ، في اللحظات التي نمتها هنا ، رأيت نفسي وحيداً ، أسير في أرض قفر ، لا ماء ولا زرع ، كنت متلهفاً لأن أرى أرضاً خضراء ، أو ماء ، أو عماراً ..

وفجأة سمعت صوتاً ينادي ، يدعوني إليه ، صوت امرأة .. التفت الى ناحية الصوت ، فلم أر شيئاً ، اندفعت في اتجاه الصوت ، أكاد أعرف هـذا الصوت ، أكاد أتذكر أين سمعته ..

ثم رأيتها !! كانت أمي .. أمي تناديني ، فـاندفعت اليهـا كالطفل .. كانت تقف على أرض خضراء زاهية ، أردت أن أصل اليها ، أن أقف على الأرض المعشبة معها ،

ولكن سيلاً جارفاً انحدر فجاة من الجبـال وأبعدني

عنها ... قاومت السيل بكل قوتي ، فلم افلح ، فقد غمرني الموج ، وكاد يخنقني ، فهتفت بكل جوارحي يا ربي ، واذا بي أصبح قريباً من أمي ، فأسرعت تمد يدها .. فلما لامست يدي ، تشبثت بها ، كما كنت أفعل عندمـــا كنت صغيراً .

وقبل ان تنتشلني استيقظت على صوت الطفل يبكي.

لقد بدأ يتكلم وكأنه يعيش في رؤياه ، ينتقل معهـا بحوادثها ، ولكنه قبل أن ينتهي ، شرد بافكاره الى ناحية أخرى ، فلم يعد يشعر لهذه الرؤيا بأهمية !

لقد هجمت عليه فكرة اخرى ، هكذا فجأة ..

لماذا قتل الراهب ؟

ما الذي جناه الرجل الصالح العابـــد المسكين حتى قتله ؟ إنه لا يستطيـع أن يقدم تعليلاً معقولاً لما حدث ..

كان الراهب يعبد الله ..

بعيداً عن اذى الناس ، بعيداً عن الدنيا ، ألقى بنفسه في تلك الصومعة ، وتركها تجري بـــه في موج كالجبال ، فالدنيا من حوله لم تعد صالحة للبقاء ..

ولكن .. لماذا قتله ؟

ماذا يتوقع رجل قتل تسعةً وتسعين نفساً ، من رجل لم تصل يده بالأذى الى ادنى حيوان ؟ !

إنه لو كان مكان الرجل الصالح ، لما فعل غير الذي فعله ، وكانت أدنى وسيلة للاحتجاج .

لقد دخل على الراهب المسكين وهو بين أدعيتـــه وأذكاره ، محلقاً بروحه اللطيفة الى عالم الملائكة ، العالم الطيب ، الذي لا يعصي الله أبداً .

وقد أقبل عليه ، بكل ما فيه من فظاظة وغلظة ، فقضى على تلك الأنفاس المضمخة بعبير ذكر الله والتسبيح بحمده . وأوقف دقات القلب الخاشع المنيب ..

وأغمض العين التي طالما غسلتها دموع التوبة والخشية والخوف من الله .

وأسكت الصوت الرقيق الحنون ، الذي ما نطق في يوم من أيام عبادته ، بكلمة نابية ولا عبارة جارحة .

ونظر الى نفسه ..

أيفعل كل هذا ؟

كيف يرجو أن يتوب الله عليه ، وهو الذى عاث في الأرض وأفسد فيها ؟ !

كيف يرجو أن يغفر الله له ؟ ..

وبدا له وجه الراهب ، غاضباً ، يدفعه بيده ويصيح:

ـ لا تدنس صومعتي بأقـدامك .. لا تلوث هوائي بانفاسك .

ولكن أين يذهب ؟

أي أرض يستطيـع أن يطأها فلا تدنسها أقدامه ؟ إلى من يتوجه ؟

بمن يلوذ ؟ ..

نحن لمن .. لمن هذا الملك كله ؟

لمن هذه الدنيا بما فيها ؟

وتطلع حوله ، فإذا بجدران البيت كلها، واذا بالفضاء الفسيح الذي يبدو من فتحة الباب ، واذا بقنديل الزيت المعلق في جدار البيت ... واذا بالدنيا كلهـــا .. كلها .. تهتف بصوات واحد : لله الواحد القهار .

وضرب بعرض كفيه على رأسه ، ومال بجسمه الكبير على الأرض ، وأخذ يبكي كما يبكي الطفل الذي فقد شيئاً عزيزاً وثميناً !

أيفعل كل هذا ؟ أيقتل الناس ثم يسير بطول قامتـه وكأنه لم يفعل شيئاً ؟ .

ألم يعلم بأن الله خالق الأرض والسماء ، خالق الدنيا ، رب كل شيء ومليكه ...

وهتف بكل جوارحه وهو يرفس كما يرفس الخروف المذبوح :

ـ يا رب ..

واستيقظت الطفلة من نومها ، واعتـدلت في مكانها وهي تفرك عينيها ، ثم تطلعت مستغربة ..

ما الذي جعلها تنام هنا ؟

ثم نظرت إلى العجوز التي جلست قريبـاً من الرجل المكوم على الأرض ، وانتقلت بنظراتها إليه ..

وتذكرت .. تـذكرت رفيق الليلة الماضية ، رفيقها في الذهاب إلى القابلة ..

ولما رأته يبكي ، دفعت الغطاء ، وأسرعت إليه ، فجثت على ركبتيها ، واحتضنت رأسه الكبير بيديها الصغيرتين الرقيقتين ، وقالت بصوتها الناعم :

ـ لا تبك يا عمي .. لا تبك .. إن أمي بخير ، لقد ولدت طفلاً ..

أما العجوز فقد التفتت إلى ناحية أخرى وهي تقول ، وكأنها تخاطب نفسها :

ـ لقد انهد الجبل .

لقد كان فيما مضى ، يرى أنه من العار على الرجل أن يبكي ، بل من الجبن ، وهل البكاء إلا للنساء ؟ !

ولكن ها هو اليوم يبكي ..

ويبكي بكل قلبه ، لقد تحولت احزانه الكثيرة الكثيرة إلى دموع ..

كم من مرة أراد أن يتوب ؟

كم من مرة وقف في وجه أصحابه . . . شركائه في الجريمة يصرخ بهم :

ـ لن أعود إلى الجريمة بعد .. لن أعود ..

ولكنه كان يعود.. يعود كاقبح وأبشع مما كان عليه..

وها هو اليوم يبكي ..

يبكي أيامه الماضية التي قضاها يقتل الناس ..

يبكي نفسه الضائعة ، يبكي حيرته وتيهه ، إنه يكاد هو نفسه ، يتحول إلى دموع ..

أيسير على الأرض التي خلقها الله ، وهو الذي عاث فساداً في أرض الله !!

أيشرب الماء الذي أنعمه الله ؟ ..

أيأكل من رزق الله ؟!

ومضى كلما تذكر نعمة من نعم الله يبكي ، ويبكي، حتى دمعت عين العجوز ، واخذت الطفلة تشاركه البكاء وهي لا تدري لماذا يبكي !

وشخطت العجوز ، ومسحت أنفها بطرف ثوبها ، أما هو ، فقد اخضلت لحيته ، وأصاب التراب شعر رأسه.

وتركته العجوز يبكي ، حتى انهد تماماً ، ثم اعتدل في جلسته ، وقد انمحت عنه تلك الآثار التي كانت تدل على فظاظته وخشونته وتنمره .

ولما ارتاح قليلاً ، التفتت اليه العجوز تقول :

ـ هل أنت مستعد للذهاب الى الرجل العالم ؟

فهز رأسه وقال :

ـ نعم .. لنذهب إليه .

فنهضت بسرعة ، وكأنها تخشى أن يرجع عن كلمته ، وأشارت بيدها تقول :

ـ هيا ..

وقبل أن يتحرك للنهوض ، جذب اليـه الطفلة ، وضمها الى صدره ، وقبلها من رأسها ..

كم كان يتمنى الآن لو كان لـه بيت صغير مثل هذا ، وزوجة وفية ، وطفلة جميلة مثل هذه ..

لماذا ضيع حياته ؟

وأخذ يتحسس شعر رأسها بأنامله ،

إذا مدَّ الله في عمره فسوف يبني له بيتاً ، ويتزوج ، ويعيش مع زوجه وأطفاله ، كما يفعل أي رجل ..

أي رجل يشعر بكرامته ..

واطمأنت الطفلة إليه ،فالتصقت على صدره وأخذت تتحسس بيدها الصغيرة الناعمة لحيته الكثة وقالت :

ـ لماذا لا تستحم ؟

ونظر اليها بحنان ، وأجاب بصوت يشبه الهمس :

ـ سا ستحم .. ساستحم يا بنتي .

يا بنتي ...

وهزتـه هـذه الكلمة .. لأول مرة تاتي على لسانه ، ولكن ما ألذها ، ما أجملها .. لقد ظن أن غيره قـد نطق بها .. فعاد يكررها،يستزيد من حلاوتها ، ورددها بصوت اجتهد ان يكون خافتاً :

ـ يا بنتي .

وتصور نفسه راجعا من الجبل ، مقبـلاً على بيته ، فاستقبلته ابنته من بعيد ، واخذت تركض نحوه وتصيح:

ـ أبي ..

وقد هرول نحوها ، ليوفر عليها بعض المسافة ، ولكي يشاركها شعورها ، فيلتقي بهـا في منتصف الطريق ، ويحتضنها،ويرفعها بيديه،ويحملها على كتفه،ويعدو بها ..

ويتطلع إليه الرجال والنساء في القرية ، ينظرون إليه ويبتسمون .

كانت هذه التأملات قد تركت على وجهه أثراً جميلاً، هادئاً ، وعلت وجهه ابتسامة الرضى .

ووقفت العجوز عنـــد الباب ، وكانت تنظر الى انفعالاتـه وتعابير وجهه ، وهزت رأسها تتمتم متعجبة :

ـ كيف تحول الذئب الى حمل ؟

وعادت العجوز توقظه من أحلامه :

ـ هيا يا رجل .. هيا قبل أن ينتصف النهار .

ووقف بجسمه الكبير ، وهـو يترك الصغيرة تفلت من بين يديه . وقف ينظر اليها ويبتسم ، وفي عينيه ألف ألف شكر .

وقبل أن يغادر ، عاد مرة أخرى فانحنى على الطفلة ومسح بيده على شعرها الناعم النائم ، وطبع على رأسها قبلة ، أودعها كل حبه وحنانه واعترافه بجميلها .

ثم اعتدل في وقفته وقال بصوت مسموع ، موجهاً كلامه الى المرأة النائمة في الحجرة المقابلة :

ـ أرجو الله أن يبارك طفلك .

ثم خرج يسير مع العجوز ، وهو يتلفت بـــين آن وآخر ، ينظر الى الطفلة التي وقفت تلوح له بيدها ، كلما التفت ينظر اليها .

ومضى الرجل مع العجوز ، يحث الخطى نحو القرية التي اشارت إليها ، ليسأل الرجل العالم ويقول له :

ـ لقد قتلت مئة نفس ، هل لي من توبة ؟ .

• • •

قوم يعبدون الله

مضى الرجل الغريب مع المرأة العجوز يحث الخطى ، وسار متلهفاً للوصول الى القرية الأخرى : القريـة التي يرجو أن يجد فيها الدواء لجرحـــه المكلوم ، لقلبه الذي أحرقته الذنوب ، لروحه الحائرة ، التي تريد الرجوع الى الله .

ولم يمض بعيداً ، حتى شعر كأن قواه تنحل ، لقد أحس بما يشبه الدوار في رأسه ، وبشيء من الضعف يدب في أوصاله .

والتفتت العجوز تحثه :

ـ ما الذي أصابك ..

قال :

ـ لا أدري .. ربما لأني لم أتناول طعاماً ..

فأسرعت إليه تتنـــاول يده ، ثم تتحسس حرارة

جسده ، ثم رفعت رأسها وقالت :

ـ أنت محموم .

ثم أضافت :

ـ هل تريد أن تستريح قليلاً ؟

قال :

ـ لا .. أريد أن أصل .

ولكنها نظرت إليه جيداً ، ثم أشارت تقول :

ـ من الخير أن تجلس الآن ... وسنصل بإذن الله.

وجلس الرجل ينظر الى ما حوله ، لقـــد أزاحت الشمس عن رأسها الغطاء ، وبدت بوجهها الجميل ، ترسل أشعتها الذهبية على الكون . كان يمتد أمامه سهل فسيح ، سهل خصب ، لم يبق موضع شبر منه دون أن يزرع .

وكان منظر السهل في ذلك الصباح الجميل، يبدو رائعاً رائعاً، كبساط كبير منقوش على أشكال مربعة ومستطيلة، فيها الأخضر السندسي ، والأصفر المحروق ، ولون البن الفاتح .

وعلى مرتفع من الأرض ، رأى صبياً راعياً ، جالساً على صخرة ، واضعاً رجلاً على رجل .. كان يغني بأعذب صوت سمعه في حياته ، كانت أغنيته من تلك الأغاني الجبلية التي تصف خضرة الأرض ، وزرقـــة السماء ، والزرع والمطر .. ولكن الجديد فيها ، والذي أخذ بمجامع قلبه ، الصوت الحزين ، ينساب متموجاً ، كالبحر هزته الرياح .. وإشارات الصبي بعصاه أثناء الغناء ، حتى سحر بصوتـه الحزين أغنامه التي انسجمت مع صوته ، فراحت تصغي اليه باهتمام .

وحطت بعض الطيور التي يطوق جيدها خيط اسود ، وتلفت الانظار بروعتها واتساع عينيها ..

وأشارت العجوز الى الطيور وقالت :

ـ هـذه هي الطيور القدسية ، تنادي كل صباح يا قدوس يا قدوس .

ولم يرد عليها ، لانه لا يجد في نفسه الرغبة في الكلام ، كان يعيش مع نفسه الحزينة المتعبة ، كان في داخله بركان من الألم والندم ، وأنه لو استطاع أحد أن يفتح قلبه ، لما

وجد فيه غير الدموع .

لقد حدثته أمه عن هذه الطيور ، كان صغيراً آنذاك ، كانت تحذره أن ينالها بسوء ، وكانت تقول له :

ـ إنها من مدينة القدس يا بني .

والتفتت العجوز فجاة ، وقالت وهي تنهض :

ـ هيا .. من الأفضل أن نسير قبل أن ترتفع الشمس .

لم يكن في حاجة الى الحث ، فقد همّ بالنهوض قبل أن تتحرك ، ومضى يتبعها .

كان صوت الصبي الراعي ، الصوت الذي ملأ الوادي عذوبة ، الصوت الجميـل الحزين ، قد ترك في نفسه أثراً ذكره بذلك الصوت الغريب .. صوت الرجل يستغيث . إنه لا يـدري أين سمعه لأول مرة ، وممن سمعه ، ولا يدري ، اكان ما سمعه حقيقة أم مجرد وهم ؟!

ثم التفت الى القرية التي غادرها ، فاذا بها تختفي وراء تل كبير . لم يعد يرى الطفلة اللطيفة التي وقفت تودعه ملوحة بيديها ، ولم يعد يرى البيوت .. !!

وهز رأسه وهو يواصل سيره يتبع المرأة العجوز ..

لا شك أنه تصرف بجنون في الليلة الماضية ، كان عليه أن يطرق الباب بكل لطف ، واذا خرج رب البيت ، قابله بابتسامة هادئة ثم رجاه بقوله :

ـ انني رجل غريب ، ليس لي مأوى ، هل تسمح لي بالمبيت هذه الليلة ؟

ولكن .. لماذا كان يريد اللجوء الى البيت ؟

وهل كان يلجأ الى البيوت قبل هذه المرة ؟

آه .. لماذا فعلتُ بنفسي كل هـــذا ؟

وتذكر ..

تذكر أنه كان خائفاً ، كان يشعر كأن الدنيا تركض وراءه تريد أن تخطفه ، أن تحطمه ..

وتمتم مع نفسه :

إنه شعور بالضعف .

ولكن لماذا تريد الدنيا أن تحطمه ؟

ما الذي جناه ؟

والتفتت العجوز تسأله :

ـ هل ارتكبت ذنباً تستحق عليه العقاب ؟

وفوجىء بسؤالها هذا، ونظر اليها متحيراً ، ولكنها مضت في سبيلها وهي تقول :

ـ لقد كان مظهرك الليلة الماضية يدل على أنك ارتكبت ذنباً عظيماً ..

كنت تضرب بكفيك على رأسك .

ودون أن تلتفت إليـه ، أو تسمع جوابه ، حوّلت الموضوع وقالت وهي تشير الى الأرض الممتدة أمامها :

ـ هذه الأرض الزراعية تعود الى القرية التي تقصدها.

ثم التفتت اليه وهي تبتسم :

ـ أنا من تلك القرية .

ووقفت تنظر الى الأرض ، وتستعيد ذكرياتهـــا ، وداعب الهواء خصلة من الشيب تدلت من رأسها،وتنفست بملء صدرها وقالت بصوت خفيض خفيض ، كأنها تخشى أن تستيقظ من أحلامها :

ـ هذه الأرض الغالية كانت تعود لأبي .. هنا رآني .. كنت أجيء مع أبي اساعده ..

لقد أخبرني بعـد ذلك ، أنه من أول مرة ، من أول نظرة ، شعر بقلبه يطير الى ناحيتي .

وجلست على صخرة ، وحلقت بروحها الى أيامها الأولى ، الى احلامها الجميلة ، وتبسمت ، وقـد عادلها نشاطها وسرورها وراحت تتحدث بكل احاسيسها ..

ـ لقد بذل كثيراً حتى ظفر بي ، كان أبي لا يريد أن يزوجني بعيداً عنه، كان يريدني ان اتزوج في نفس القرية. ولكن ..

ورفعت رأسها الى السماء وتمتمت :

ـ إرادة الله تغلب كل إرادة .

وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

كان يصغي إليها ، وكان يشعر بدبيب خفي يدب في أوصاله يشله عن الحركة . فاستند بجسمه الكبير الى صخرة ، ثم ترك جسمه ينساب نازلاً حتى جلس على الأرض، ومسح جبهته بيده ، وهبت نسمة باردة أنعشته .

لم يبق أمامه غير هذا السهل ، وعليه أن يقطعه ، ليصل الى ذلك الجبل الذي لا يبدو عالياً ، والقرية التي

يقصدها تقع خلف الجبل .

وعادت العجوز تروي أحلامها :

ـ كان يوم الزفاف جميلاً .. اركبوني على حمار أبيض نظيف ، كان حماره المفضل،لقد خرجت معي القرية كلها، بالرجال والنساء والأطفال،لم يحظ غيري بمثل ما حظيت به من عرس جميل .

والتفتت إليه وقالت وهي تبتسم بحياء :

ـ كنت أجمل بنات القرية .

ثم سكتت قليلاً ، وأشارت بأصابعها وهي تضحك :

ـ أهداني أبي خمس دجاجات ، وبساطاً ثميناً .. كنت ابنته الوحيدة .

وتنهدت وهي تضرب بكفها على فخذها :

ـ كم كان يحبني .. رحمه الله .. ألم أقل لك ، كنتُ ابنته الوحيدة .

ثم التفتت اليه ،ولما رأته جالساً يصغي إليها ، صاحت بعصبية ظاهرة :

ـ لنسرع يا رجل ، لماذا تجلس هكذا .. ألم أقل لك إنه من الخير لنا أن نصل قبل أن ترتفع الشمس ؟ .

ولم يعترض على كلامها ، ومضى يتبعها . ولكنه لا يدري من أين جاء كل هــذا الضعف ، إنه يحس بقواه تتلاشى شيئاً فشيئاً ، ولم يشعر في نفســه رغبة للأكل . كان كل همه أن يصل .. أن يصل الى الرجل الذي يستطيع أن يجيب عن سؤاله .

ولكن ماذا لو أجابه الرجل العالم وقال له :

إن باب التوبة في وجهك مسدود.. إنه ليس لك توبة.

هل سيقتله كما قتل الرجل العابد ؟ !

وسمع العجوز تصيح :

ـ ها قد وصلنا .. ها هي القرية .

لم يكن أمامه غير الجبل القليل الارتفـاع ، وكانت العجوز تتسلقه بخفة ونشاط، أما هو فقد كان يجد صعوبة في تسلقه ،ووقف مرات يمسح العرق المتصبب على جبينه، ويسترد أنفاسه اللاهثة .

عجباً .. كل هذا يحدث في ساعات ؟ !

لقد أراد الليلة الماضيـة أن يهدم القرية على رؤوس أهلها وها هو اليوم لا يقوى على صعود جبل قليل الارتفاع؟ !

وكانت العجوز قد سبقتـه الى أعلى الجبل ، ووقفت تناديه :

ـ ما الذي جرى لك ؟ .. هل تريد أن تقضي النهار على التل ؟

وتحامل على نفسه ، واستطاع بشق النفس أن يصـل إليها .. ها هي القرية ...

كانت بيوتها تنحدر مع انحدار السفح . وكان يخترقها نهر صغير ربما تكوّن من مياه الأمطار ،وأمام القرية على شاطىء النهر الأيمن مجموعة من الأشجار الباسقة المتعانقة .

وأول ما طالعه ، شاب يمتطي حماراً ،يسير متمهلاً .. وفتيات في عمر الورد خرجن بارديتهن الملونة الزاهيـة يحملن جرار الماء ، وقد تحلقن حول العين في السفح،وكن يتحدثن ويضحكن مرحاً .

لم يرد أن يطيل الوقوف هنا ، كان يريد أن يصل الى الرجل العالم ، ليسمع من فمه الجواب ، وشعر كأن الهواء في هذه الناحية يختلف قليلاً ، والجو يبدو هادئاً جميلاً ، وقد دبّ فيه بعض النشاط ، والأزهار الملونة الضاحكة تنتشر في هذه الناحية يهزها الهواء ، فتتمايل نشوى ، والماء في الجدول يجري صافياً رائقاً يشف عن قطع مرصوفة من الحصى الملون .

ولما تقدم نحو البيت ، رأى عدداً من عجائز القرية وقفن يثرثرن . ولما سلمت عليهن رفيقته العجوز ، رحبن بها كثيراً واحتضنتها إحداهن وراحت تقبلها بشوق .

ومن أحد البيوت سمع صوتاً يرتفع ، يتلو آيات من كتاب الله،ومن ذلك البيت كان يهم بالخروج رجل متوسط القامة نافذ النظرات ، يدل منظره على القوة والصلابة ، وتلتمع عيناه بذكاء حاد .

وهرعت العجوز تسلم عليه ، ثم تقول :

ـ هذا هو الرجل العالم الذي حدثتك عنه .

والتقت نظرات الرجل العالم الفاحصة المتمعنة

بنظرات الرجل الغريب ، فتسمر في مكانه ، وقال بصوت خفيض :

ـ أريد أن أتوب .

وبقي الرجل العالم ينظر إليه، بينما استمر هو يقول:

ـ لقد قتلت مائة نفس فهل لي من توبة ؟

وفغرت العجوز فاها وضربت على صدرها وهي تصيح:

ـ أنت قتلت مائة نفس .. يا ظالم .

بينما ظل الرجل العالم ينظر اليه دون أن يطرف له جفن ، ودون أن يذعر كما ذعر الراهب ، وإنما بقي يركز نظراته كأنه يريد أن يتم قراءة هذا الكتاب الضخم المفتوح أمامه .

ـ لقد سألت عن أعلم أهل الأرض فدلوني عليك .. فأخبرني .. أخبرني بالله عليك .. هل لي من توبة ؟

كانت هناك قطة كبيرة تقف متوترة ، وطير نافر حط على سطح قريب،وعدد من الأطفال وقفوا يتطلعون الى الرجل الغريب الذي يقف متخاذلاً أمام عالم القرية .

وعاد الرجل يستعطف بصوت ضعيف :

— لقد ضاقت علي الدنيا ، وضاقت عليّ نفسي ، إنني أشعر كأن جميع الأبواب قد أوصدت في وجهي وأن ألسنة اللهيب تنتظرني .

واستند بظهره الى الجدار ، وأخذ يردد بيأس قاتل :

— أخبرني بالله عليك .. هل لي من توبة ؟

وهزّ الرجل العالم رأسه ، وقال بثقة واطمئنان :

— نعم .. ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ .

إن باب التوبة مفتوح ، فتحه الله لعباده المذنبين ، وما فتحه الله لا يسده إنسان ..

ثم نظر اليه نظرة نفذت الى أعماقه وقال :

— انطلق الى قرية تقع وراء هذا الجبل ، فان بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم ..

ولا تعد الى أرضك فانها أرض سوء .

وحلق الطير مصفقاً بجناحيه ، وماءت القطة الكبيرة وهي تهز ذيلها ، وارتسم البشر على وجوه الصغار ، وتقدم الرجل تملأ صدره فرحة غامرة ، وقد امتلأت عيناه

بالدموع ، وشدّ على يد الرجل العالم وقال بصوت تخنقه العبرات .

— اشكرك .. اشكرك ..

ثم رفع رأسه الى السماء، ودموع العودة إلى الله تنساب على خديه :

— شكراً لك يا رب .. اللهم إني تبت إليك .

ومضى العالم يحثه فقال :

— انصحك بعدم تأجيل التوبة ، فانك لا تدري أيمتد بك الأجل الى غد ..

وشد الرجل على يده مرةً اخرى ، ثم التفت يقبل رأس العجوز وقال :

— سأذكر جميلك ما حييت .

ثم عاد يخاطب العالم :

ساذهب الآن .. إني ذاهب الى القرية التي فيها قوم يعبدون الله .

ومضى يشتد ، وقد عادت إليه حيويته ونشاطه ، وعاد إليه الأمل الواسع العريض، الأمل برحمة الله والعودة إليه ، ومضى يردد بصوت مسموع :

— اللهم إني تبت إليك .. اللهم إني تبت اليك .

في طريق العودة

كانت القبلة التي طبعها على رأس العجوز ، قد تركت في نفسها أثراً بعيداً ، غسلت ما حملته تجاهه عندما سمعت بانه قتل مائة نفس .

ووقفت تنظر إليه وهو يبتعد، في طريقه الى الأرض التي وصفها له الرجل العالم ، وذكر أن بها أناساً يعبدون الله ..

ولما ابتعد كثيراً ، التفتت العجوز تخاطب العـــالم افقالت :

ـ هل تظن أنه يستطيع أن يتوب ؟

فاجابها بكل ثقة :

ـ ومن يحول بينه وبين التوبة ؟

ومضى العالم في طريقه، بينما عادت العجوز فانضمت

الى صديقاتها العجائز اللاتي كن يثرثرن ، ووقفت تقص عليهن ، وهي تشير بيدها الى الرجل الذي ذهب بعيـــداً بعيداً ، وهو لا يفتأ يردد بكل إخلاص وحماس : اللهم إني تبت اليك .. اللهم إني تبت اليك ..

وقد اندفع في طريقه ، وهو لا يكاد يصدق أذنيه .. أصحيح هو .. هو الرجل الذي أفنى حياته بعيداً عن الله ، منغمساً فيما يعود على نفسه وعلى النـاس بالضرر والأذى والهلاك ، هو .. هذا الرجل ، يقبل الله توبته ؟!

«يا إلهي يا رب العـــالمين .. يا أرحم الراحمين .. هل تقبل توبتي » ..

وكان الطريق أمامه متعرجاً ،شاقاً والصخور الكبيرة، كثيرة ، وتعترضـه في كل خطوة ، وقد توسطت الشمس كبد السماء ، . وكان لشدة فرحتـــه ، قد نسي ما به من ضعف وانهيار ، وسار وقد شغله أمر واحـد ، ونسي كل ما عداه ، شغله أمر القرية التي تقع وراء هذا الجبل ، والتي يسكن فيها قوم يعبدون الله تعالى .

وكان يسير ولسانه لا يكل عن التضرع الى الله ، بكل

ذلة وخضوع :

« اللهم إني جئت اليـــك فلا تردني .. يا من يجيب المضطر اذا دعاه »

وكانت تنتشر في طريقه بعض الأشجار القليـــلة الارتفاع ، وعلى جوانب منها حشائش كثيرة ، شاهد أثر الرعي على حوافها .

ومضى ينظر الى ما حوله ، وقد بداله الكون ، أجمل مما كان يراه ، وقد فتنه منظر الطيور في السماء ، وأخـذ يخاطب نفسه :

ـ لماذا لا يحلق الانسان بروحـه كما تحلق هذه الطيور بعيداً عن التراب ؟

كان يسير في الدرب المطروق ، وقد نهضت الى جانبه الأيمن كتلة كبيرة ، وكانت تبدو وكأنها قـــدت بمنشار . وكان منظرها يبعث الراحة في النفس ، فبينما يرى بعضها في مثل سواد الفحم ، يرى الى جانبها قطعة بيضاء ، أشد بياضاً من الوفر ، والى جانبها قطعة حمراء داكنة .

ومضى في طريقه مندفعاً متحمساً ، وهو يمـني نفسه

بالوصول بسرعة الى القرية . لقد أشار العالم بيده وقـال ، إنها وراء الجبل .

وفي طريقه شاهد عين ماء ، ينساب ماؤها الى مسافة قصيرة ، ثم يغوص في أحضان الصخور، ولا يظهر إلا على مسافة بعيدة في المنحـــدر ، حيث نبتت أعشاب كثيرة ، وازدحمت عليها العصافير والقنابر وطيور الزاغ السود .

وكان منظر العين جميلاً مغرياً ، تحيطهـــا الصخور البيض النظيفة ، وتطوقهـــا حشائش خضر زاهية ، تتخللها بعض الزهور الجميلة .

وانحنى على العين فغمس يده فيها ، ثم أخرجهـــا عندما شعر بشدة برودتها ، ثم غسل وجهه ، وبلل لحيته ، ثم غرف غرفة بيده وشربها ، وما أن وصل الماء الى جوفه حتى أحس بدبيب الانهيار يدب في أوصاله . وتمنى لو أكل شيئاً ، لعله يعيد اليه صحته ونشاطه ، فلم ير قريباً منه غير الحشائش ، ذات الورقة الكبيرة، والتي غالباً ما تجمعها النساء ويطبخنها . فقطع بيده عدداً وغسلها ، ثم وضعهـا في فمه وراح يمضغها بتؤدة ولكن نفسه عافتها، وقذفتها

معدته عندما وصلت اليها ، وشعر كأن معدته قد أغلقت بابها تماماً فلا تريد أن تفتحه لأي طارق ، لا ماء ولا طعام!

متى يستطيع الوصول الى القرية التي فيها قـــوم يعبدون الله ؟.. وكان الهواء رطباً ، وفي السماء غيمة نائية، تبدو غريبة ، او ضائعة ، في هذا الكون الواسع الأرجاء . ومن بعيد شاهد رجلاً مقبلاً الى هذه الناحية .

ونهض بصعوبة ، وتمنى لو استطاع أن يجد عصا يتوكأ عليها ، يحمل عليها نفسه المتعبة ، ثم وقف ، لعلـه يجد من يحمله الى حيث يريد، سوف لا ينسى هذا الجميل. ومضى مستنداً على الصخور، ثم جمع قوته وسار مترنحاً..

وكان الطريق المعبد يأخذ بالارتفاع ، ولكن بصورة تدريجية وكان يجد صعوبة في ارتقائه .

« لقد قضيت حياتي في المنحدر ، وها أنا اليوم ، اليوم فقط ، أحاول الصعود . يا إلهي.. يا رب العالمين .. أعني، وخذ بيدي ، واقبل توبتي وعودتي اليك » .

وعندما لم يجد في نفسه القوة على السير لوحده ، عـاد مرة اخرى يستند على الصخور ، ووقـع مرتين ، والمرة

الثالثة تأخر في النهوض .

واستمر في سيره ، حتى إذا بلغ ذروة المرتفع ، بلغ به الجهد غايته ، ووقف لاهث الانفاس، وازدادت دقات قلبه زيادة أرهبته ، وقد انهارت قواه مرة واحـدة ، واستند بظهره الى صخرة ، وأخذ يردد بصوت خفيض :

ـ يا رب يا رحيم .. أعني .

وأغمض عينيه ، ووضع يـده على صدره ، يتحسس دقات قلبه . لقد أخذ قلبه يدق بسرعة غير اعتيـــادية . وكان الهواء يضرب وجهه فيلطف ما به ، وقد بدا السهل من الناحية الغربية فسيحاً ممتداً لا يرى فيه أثراً للزرع ، إلا بعض الاشواك المنتشرة هنا وهناك .

ثم فتح عينه عندما سمع حركة...وظن أن الرجل الذي رآه مقبلاً من بعيد قد وصل . وظل ينتظر لحظات يريد أن يسأله عن القريـــة ..

وإذا فجأة ، يبرز أمامه ذئب أغبر !

ما الذي جاء بهذا الذئب في هذه الساعة ؟

ووقف الذئب متحدياً ، ناظراً إليـه نظرة استفزاز ودعوة للقتال !

إنه لا يريد أن يموت الآن ؟

إنه يريد الوصول الى الارض التي يقصدها ،أن يعيش أيامه الأخيرة مع القوم الذين عرفوا الطريق إلى الله فسلكوه، وساروا عليه .

كم تنفع العصا الآن ...

لقد كان الذئب فتياً قوياً ، رائعاً ..

كان يقف متحدياً تحدي الأبطال ،

كان يحيط أنفه ، فوق فمه ، سواد لامع .

وفي اتساع عينيه الصفراوين أكثر من عزم وإصرار..

وفكر في أن يستغيث ، لعل أحداً يسمع صوته فيهرع إليه ، على الأقل يعينه على هـذا الذئب .

وهنا ..هنا في هذا الموقف تذكر أين سمع ذلك الرجل الذي كان يستغيث ، تذكره تماماً .. تذكر الحادث بكل تفاصيله ، وتعجب غاية العجب ..

أفي هذا الموقف يتذكر مثل هذه الحادثة ؟

كم حاول أن يتذكرها سابقاً فلم يوفق .

ولم يتحرك الذئب من مكانه ، بل وقف عالي الرأس بارز الصدر ناشراً اذنيه ، يستعرض قوته بكل اعتزاز . وكان لون ظهره الرمادي ، ينساب الى جانبيه فيضمحل ثم يتحول الى اللون الاصفر المغبر .

أيموت على هذه الحال ، أيقتله الذئب ..

أهكذا تكون نهايته ؟

وتمنى لو استطاع أن يصيح ، أن يستغيث . « وبرزت أمامي صورة ذلك الرجل مرة أخرى.لقد كنت آنذاك في العشرين من عمري ، وكنت قد عدت من حكيم القريـة الذي أعطاني قارورة من الدواء ، أغلقها بإحكام وقال :

ـ لا تتأخر عنها ، دعها تشرب من هذا الدواء حال وصولك .

تشربه كله مرة واحدة ، وسوف تنام لساعات ، ثم تستيقظ ، فاذا استيقظت فقدم لها حساءً دافئاً ، ولكن

بكمية قليلة جداً . وبعد ساعة من الزمن ستعود الى طلب الطعام ، فقدم لها من نفس الحساء ، وبكمية أكثر بقليل. ثم اتركها ساعة اخرى،وبعد ذلك قدم لها أية كمية تطلبها، فانها ستقبل على الطعام بشهية ..

ثم نظر إليَّ كانه يستحثني وقال :

ـ لا تتاخر عنها .

لم اكن في حاجة الى وصيتـه ، فقد كنت أحب أمي حباً ، لا اصدق أن على الأرض من يحب أمه مثلي، وعدت أحمل الدواء ، في طريق جبلي وعر ،فقد كنت أقيم مع أمي في قرية اخرى ، وراء وادي العروس . وقبل أن أهبط الجبل ، سمعت صوت رجل يستغيث . كان يتردد صوتـه في جنبات الوادي ، كان ذلك قبل الغروب .

ولم التفت الى الصوت ، واسرعت بالهبوط ، اريــد الوصول الى أمي .. امي التي تعاني من شدة المرض، والتي أفديها بكل شيء .. بحياتي .

ولكن صوت الرجـل ظل يطرق اذني ، ويسد علي

المسالك .. وتذكرت قول أمي :

ـ أحسن الى الناس يا بني ..

أحسن الى الناس يحسن الله إليك .

وقفت متردداً ، لقد أوصاني الحكيم بالا أتأخر عنها ، وهذا الرجل ، ربما يكون في حالة تؤدي به الى الهلاك اذا لم انجده !

وعدت في الحال ، وقد قررت أن انقذه ..

عدت راكضالا أعبأ بالصخور التي تعترضني،فصعدت الجبل ، ورأيته .

كان قد اضطره دب كبير الى ناحيـــة من الجبل ، فتسلقها ، وبقي معلقاً في حالة تدعو الى الرثاء، وكان الدب مترصداً له منتظراً انهيار الحافة الضعيفـة التي تحت قدمه لكي يقع فينقض عليه .

لقد كان الدب كبيراً عظيماً ، يميل لونه الى الرمادي المصفر .

ولم يلتفت الدب الى ناحيتي،ولم يعرني انتباهه. فعمدت

الى شجرة وقطعت منها غصناً ، واقبلت عليه. وكنت قد أعددت للامر عدته ، وأردت أن ابعده عن الرجل لعله يستطيع النجاة بنفسه . وأردت أن أخدعه فضربتـــه بالغصن على ظهره،وانسحبت بسرعةالى الجانب المنخفض فالتهب الدب غيضاً ، وهاجمني بعنف ، فزغت عنه ، وفقد توازنهوانهارت به الصخرة الى الوادي العميق .

وهكذا نجا الرجل،وهرع إلي يشكرني باسطاً ذراعيه، يريد أن يصافحني . ولكنـه في طريقه إلي عثر بقارورة الدواء ، فتدحرجت الى الوادي ، وتحطمت .

فاظلمت الدنيا في وجهي ، وصرخت غاضباً :

ـ أنت قتلت امي .

وهاله منظري ، وكان قصيراً نحيفـــاً ، حليق شعر الرأس واللحية ، فتراجع وهو يقسم أنه لم ير القارورة . ولكني فقدت صوابي ، وصرخت به مرةً اخرى :

ـ أنت قتلت أمي .

ثم هجمت عليه ، وحملتـــه ، وهو يرفس بيديه

ورجليه ، والقيته وراء الدب .

ثم مضيت اسرع بالهبوط، وكانت الشمس قد اختفت، والأحجار الصغيرة تتطاير امام قدمي. واندفعت في وادي العروس ، ولم التفت الى الرعاة العائدين، ولا الى الحيّات الصغيرة التي أخذت تهرب من طريقي ، ولا الى شيء من خشاش الأرض .

حتى وصلت الى قريتي ..

وأول ما استقبلني عدد من الشباب فقالوا بلهجة تنم عن الحزن :

ـ لقد ماتت امك .

ولم أردأن أصدق اذني،فاندفعت أركض نحو البيت.. إنني لا أريد أن تموت أمي .. لا أريد أن تموت . لقد قلت لها مراراً ، أفضل أن اموت قبلك يا امي ،أريد أن افديك بروحي يا امي . لقد كانت طيبة ورحيمة ، وعظيمة الثقة بالله تعالى .

ولماوصلت الى البيت،رأيت امرأة تخرج منه ، رأيت الدموع تملأ عينيها وقد تورمت من كثرة البكاء ، فلما رأتني

صاحت في وجهي وهي تقول :

– لماذا تأخرت .. أين كنت ..

لقد ماتت امك ولم تجلب لها الدواء ..

واظلمت الدنيا في عيني ، وشعرت كأنها تدور بي ، وكأن كل ما حولي يردد صوت ذلك الرجل الذي كان يستغيث ، وقدّرتُ أنه لم يمت ، لقد كان السبب في موت امي .

وهيء لي أنه هناك ، فعدت أركض أريد أن أقتل الرجل الذي تسبب في موتها ، وبقيت اركض حتى كلّت قدماي ،وانهارت قوتي تماماً ، وسقطت على الأرض مغشياً علي » .

وفتح عينه ، فرأى الذئب ينظر إليه ، ناشراً أذنيه، وقد أخذ يهر كما يهر الكلب،وكان يبدو عليه كأنه استبطأه، فضرب الأرض برجله . ولكنه بقي في مكانه ، يواجهه بأنفه اللامع الأسود ، وصدره الذي يكسوه شعر أبيض غير ناصع البياض يمتد الى بطنه . وفي عينيه الصفراوين أكثر من دعوة للمبارزة .

لقد كان بالأمس يتحدى القرية ومن في القرية . لقد كان بالأمس يشبه هذا الذئب الى حد كبير، وها هو اليوم يشعر بكل هذا الضعف ! .

أهكذا الإنسان .. ينتقل بسرعة من حال الى حال ؟

لماذا أخذت الأفكار ترد عليه ، مرة واحدة ، وبهذا الوضوح ؟

لماذا استيقظت قواه العقلية بهذا الشكل الغريب المخيف؟ هل سيكون قبره في بطن الذئب ؟

وتململ في مكانه ، وتلفت يمنة ويسرة ، هذه الأرض تبدو جميلة جميلة كأجمل ما رأتها عيناه ، والحشائش الخضر النضرة ، والسماء الصافية إلا من تلك الغيمة البعيدة . أين ذهب الرجل ؟

وزمجر الذئب ، وتهيأ في حركة قوية،وضرب حجراً قريباً فابعده .

إنه يريد أن يتحرك ، أن يزيح عنه هذا الكابوس ، إنه يريد ان يهجم على الذئب فيدق عنقه .

« لماذا لم تأت بالأمس أيها الذئب الأغبر ؟

أنت جبان ، ولو لم تكن جباناً لما طمعت في لحمي وأنا في مثل هذا الضعف !

هل كنت بالأمس جباناً عندما هاجمت الرجل العابد، ذلك المسكين الذي كان يعيش مع اذكاره وأدعيته ؟ إنني لم أرحم ضعفه ، لم أرحم وحدته .

لا تكن قاسياً معي أيها الذئب ، فانني عدت الى الله ، عدت إليه .

اغرب عن وجهي ، إنك لو مزقت جسدي لما وجدت فيه غير قلب ينبض بذكر الله تعالى » .

ورفع رأسه الى السماء :

ـ يا رب .. يا رب العالمين .. لا أريـد أن يمزقني الذئب . يا إلهي .. إني اريد أن أصل الى القرية التي يعبدك فيها اناس عرفوا الطريق اليـك ، وعرفوا أن السعادة في طاعتك .. فاريد أن أعبدك معهم . أنا يا رب تبت اليك .. جئتك بكل قلبي ، فلا تتركني لهذا الذئب .

وسمع عدد من العصافير تشقشق ، وعلى مسافة ليست بعيدة، شاهد مجموعة من النحل، تفرقت بعد قليل وابتعدت.

« ماذا ينتظر الذئب ؟ إن وقوفك كالحجر الجامد يقتلني. أتظن اني اخافك أيها الذئب ؟ لا والله . ولكن ليست لدي القوة الكافية لكي القنك درساً لن تنساه .

بالله عليك أيها الذئب ، دعني لآلامي وجروحي التي اثقلتني ، اترك لي بقية الأنفاس اتمتع بها في طاعة الله . لا تحرمني من لذة العودة إلى الله هل تريد أن تقطع علي الطريق؟ يا لك من جبان » .

وأراد أن يصرخ كما كان يفعل بالأمس ، وان يلقي بنفسه على الذئب ، فيحمله ويرميه في بطن الوادي .. ولكن .. شعر أن قوته لم تعد تلبي طلبه .

هل يستسلم ؟

إنه لا يريد أن ينهزم ، انه يريد أن يصل الى القرية مهما كلف الأمر ..

اذا تمكن منه هذا الذئب ، فماذا سيأكل منه أولاً ؟ لا شك أنه سيمزق عنقه ، وسيأتي على بقية جسده بعد ذلك.

سيمزق هذا الثوب ..

ولكن ثوبه لم يكن جديداً .

هل يستطيع هذا الذئب أن يأكل رجلاً بهذا الحجم ؟

وخارت قواه ، وشعر كأن الأرض والجبال تميد به ..

وسقط مغمياً عليه !

★ ★ ★

ثم هطلت الأمطار

ومضت فترة طويلة ، غاب فيها عن الوجود . وكان عبارة عن جثة كبيرة ملقاة على الجبل ، ثم شعر كأن شيئاً يدب فوقه .. بل شعر بضربات على وجهه ..

إنه الذئب ..

لقد هجم عليه ..

ماذا أكل منه الذئب لحد الآن ؟ . لعله بدأ برجله . وأراد أن يحرك رجله ، ولكنه شعر كأنها مقطوعة . ثم شعر بضربات لطيفة ودودة ، موقظة .

وسمع صوتاً يقول :

– استيقظ يا رجل ..

وفتح عينيه ..

فاذا بفتى يرش الماء على وجهه ، ويناديه .

وتأكد أنه لم يمت بعد .

لقد كانت هناك بقية من أنفاس سوف يصل بها الى القريـــة .

نظر الى الفتى ، كان يتفجر قوة وحيوية ، كان شاربه الأشقر طويلاً يمتد على طول شفته العليا ،ثم يرتفع في انحراف جميل نحو خده .

وساله بصوت ضعيف :

ـ هل قتلت الذئب ؟

قال الفتى وهو يعينه على الجلوس :

ـ كلا .. لقد هرب .

وتنهد وهو يتمتم :

ـ الحمد لله ..

ثم ساله الفتى وهو يعدل شاربه :

ـ أين وجهتك ؟

فأخبره بأنه يريد القرية التي فيها قوم يعبدون الله.

فنهض الفتى وهو يشير بيده نحو مغرب الشمس وقال :

ـ إنها ليست بعيدة .. إنها هناك .

ومضى خطوات، ثم كر راجعاً ، وساله بنبرة حـادة وقال :

ـ أين يقع جبل الشيطان ؟

ـ جبل الشيطان ؟!

قالها وهو ينظر إليه باستغراب. إنه لم يسمع بهذا الاسم قط .

وعاد الفتى بقوامه الطويل ، وأشار بيده وقال :

ـ الجبل الذي يأوي إليه شرار الناس ، وعلى سفحه قرية تضم عوائل هؤلاء الاشرار .

ولم يستطع أن يجيب ، فهـــذا الجبل جبل الأبطال ، وتلك القرية ، هي قلعة الأبطال .. تلك قريته التي قضى فيها شطر حياته التي ابتعد فيهـــا عن الله . وذلك هو الجبل الذي كان يأوي إليه ،وكان جبلاً ممتعاً غنياً بالكهوف المظلمة .

وعاد الفتى يقول مرة أخرى :

– أين يقع جبل الشيطان ؟

فاشار بيده الى الناحية التي يقع فيها الجبل :

– إنه هناك .

ولوّح الفتى بيده وهو يبتعد.. وقال دون أن يلتفت،

– إنني ابحث عن رجل قتل تسعة وتسعين نفساً ، أريد أن أقتله . أيظن هذا الظالم أن الله يمهله ؟

وذهب وهو يهبط الجبل،ولم يدر هذا الفتى الشجاع، أنه أنقذ من أنياب الذئب غريمه الذي يريد قتله !!

ومن يدري ، ربما لو علم به، لحمله على يديه ، وألقاه في الوادي. تماماً كما فعل هو بذلك الرجل الذي كان يستغيث.

ماذا لو علم أهل القرية أنه قتل صاحبهم الرجل العابد، الذي كانوا يحبونه حباً يبلغ شغاف القلوب ، إنهم لو علموا لما تركوه حياً إلى هذه الساعة .

إذن فقــد كان يأوي الى جبل الشيطان ، لا جبل الأبطال كما كانوا يسمونه !! .

ولما آنس من نفسه بعض القوة نهض ، وسار متمهلاً

الى الناحية التي أشار إليها الفتى .

أين هي القرية ؟

ليته استطاع أن يراها بعينه ، إذن لعادت له قوته ، لعاد له أمله ، إنه لا يريد أن ينهزم ، إنـه يريد أن يصل الى القرية مهما كلف الأمر .

وانحدر من الجبـل ، وأخـذ يسير في سهل أجرد ، وكانت الشمس قد مالت قليلاً ، وشعر بحرارتها تضرب رأسه . ثم شعر بالعطش،وشيء من الجوع ! وجف حلقه.

كان يرى الطيور محلقة في السماء ، وبعض العصافير تمر مسرعة ، والسماء بدت باهتة لا جمال فيها ، ولا يوجـد نبات في هذه الناحية .

وعند الأفق ، أطلت غيمة بيضاء يبدو عليها الخمول.

سار الرجل ولسانه لا يفتر عن ذكر الله ، والتضرع إليه ، في أن يقبل توبته،وكان كلما ازداد توسله وتضرعه، ازداد شعوراً بلذة العودة ، وازدادت نفسـه تطلعاً الى الله وطمعاً في عفوه ورضاه ، وتفتحت أمامه نوافذ كـــانت

مغلقة ، بل لم يكن يراها أصلاً .

فهذا الكون ، وما فيه ، ومن فيه ، كله لله .. كله لخالق الأرض والسماء . كيف ينسى الناس هذه الحقيقة ؟!

لقد قضى حياته يخوض في الأحوال والأقذار ليصل الى النار ، كانت النار تحيط به من كل جانب ، كانت تتناوشه بألسنتها ، بلهيبها ، ولكن لم يكن يحس بحرراتها، لأنه كان كالمجنون ، او كالسكران ، او كالذي تناول مخدراً فلم يعد يشعر بما يؤذيه !!

« كيف قضيت حياتي غافلاً عما يحيط بي ، كيف قضيت تلك الأيام المظلمة ؟

كيف ضيعت حياتي في الاعتداء على خلق الله ؟ ..

يا رب ..

ها أنا يا الهي أعود إليك ، وكل ذرة في كياني تسبح بحمدك وتقدس لك ، أنا عبدك الآبق عدت إليك ..

أطرح نفسي على بابك ..

وأنت الكريم .. وأنت العفو .. وأنت الغفور ..

حنانك يا رب .. يا رب العالمين » .

كان يسير والدموع تنساب على وجنتيه ، كان يشعر كان هذه الأرض التي يطأها لأول مرة ، كأنها تعرفه، كأنها تستقبله ، فلم يتعثر في سيره ، ولم يسقط ولم يجد ما يعترض سبيله .

« أريد أن أرى الوجوه الطيبة ، أن أرى القوم الذين عرفوا ربهم فعبدوه ، ليتني أصل إليهم » .

وشعر مرة اخرى بقواه تخور ، ولكنه تحامل على نفسه ، وصبر ، ثم وقف في مكانه ..

لقد سمع صوت حداء ، إن الصوت يأتي من هناك ، من ناحية الشرق ، والتفت ، فاذا بركب من الناس ، يمتطي بعضهم الجياد،يتقدمهم الحادي، على جواد أبيض.. كان صوته طرياً ندياً رقيقاً ..

يا له من صوت جميل، إنه يذكره بصوت ذلك الهندي، الذي رآه مرة يقطع الجبال ، ويغني بصوت ، شعر في حينها كأن الجبال تغني معه ، إنه لم يفهم من كلمات تلك الأغنية شيئاً ، ولكنها هزته ، ملكت عليه مشاعره .

يا له من صوت جميل ! .

ونظر الى الركب والى هذا الحادي الذي كان يتقدمهم.. وأراد أن يصيح ، وركض ملوحاً بيده ..

ولكنه سقط على الأرض . ولم يسعفه صوته .

وبقي في مكانه يرقب الركب وهو يتجه الى الناحيـة التي يريدها .

ولم يقو على النهوض ..

وتنهد بحسرة،آه لو استطاع أن يناديهم ، لو استطاعوا أن يحملوه معهم .

ما أروع هذه الخيول .. إنها تبـــدو في هذه الأرض القفر ، في انسجام حركاتها ، في مسيرتها ، كأنهـــا قافلة الأحلام .

« من يوم ماتت امي وأنا احس بالضياع .. كنت تائهاً، وأشعر بما يشعر به التائه .. وكنت بين الحين والحين أسمع صوت أمي تناديني ، عندما أكون منهكا تعباً، في الساعات الأخيرة من الليل . كان يهيأ لي كانني أسمع صوتها يناديني،

بل .. كأنها تجلس الى جانبي تحدثني :

ـ لا تبتعد يا بني .. لا تبتعد عن الله .

لا تذهب في الطريق المظلم،فانه يؤدي بك الى جهنم.

تذكر وصيتي . عد الى الله. امش في طريق النور .. فانهيمهد لك الطريق الى الجنة ..

كنت أنفعل كثيراً ، أبكي ، ولكن .. عندما يطلع الصبح ، والتقي باولئك الأشرار في جبل الشيطان ،يتبخر كل شيء .. ولا أشعر إلا وقد عدت الىالطريق المسدود».

كانت قواه العقلية قد استيقظت بشكل عجيب ، وأخذت تروي له تفاصيل حياته .. أدق التفاصيل .

وسخر في نفسـه من اولئك الذين يدّعون تبلد قواهم العقلية عندما يمرضون .

ومضى يزحف على الأرض . إنه لا يريد أن يتوقف هذه المرة ، لا يريد أن يتراجع .

لم تكن الأرض صعبة ، ولذلك لم تتـأثر يداه ، ولا رجلاه كثيراً . ورأى الغيمة قد اقتربت ، وقد تبعتهـــا

اخرى تبدو أصغر منها ، وقطعة صغيره الى الوراء .

ورأى على بعد حشائش خضراء ، وعدداً من الطيور تحوم حولها . إنها عين ماء ،.

وأخذ يحدث نفسه بالوصول اليها ، إنها في أسفل التل، ويستطيع أن يصل اليها لو بذل جهداً أكثر ،لعل قواه تعود إليه عندما يشرب من مائها ، ويمضغ بعض الحشائش، إنها تبدو زاهية مغرية .

وكانت الشمس قدمالت كثيراً،ولم يعد يشعر بحرارتها، ونسيمات الهواء بدأت تبرد ، ولم يعد يرى الركب ، ولا يسمع صوت الحادي .

ويبدو أن امطار الليلة الماضية ، لم تسقط على هذه الناحية ، فالأرض هنا جافة ، وهذا التل المنفرد يمتد على خط طويل بحيث يتعذر على الذي يريد الوصول الى الناحية الاخرى أن يتخطاه إلا من مسافة بعيدة .

ولكن لماذا يفكر بالصعود على التل ، وهو لم يصل بعد ؟!

وعلى ذكر الليلة الماضية ، تذكر العجوز ، والطفل ·

كيف ترى سينشأ الطفل ؟ لا بد أن أمه ستقص عليه ، عندما يكبر ، وستقول له : لقد حل عندنا ضيف غريب، أكرمناه .ولكنه ظهر فيما بعد أنه مجرم..قتل مائة نفس.. قتل الرجل العابد !!

ورفع رأسه الى السماء :

– يا رب إني تبت إليك .. يارب تبت اليك .

إن المرأة العجوز قد أسدت إليه معروفاً لن ينساه ..

إنه لولاها لعاد اليوم الى سابق عهده ، لعاد الى قلعة الأبطال .. لا .. قلعة الشيطان ..

إنهم سينتظرون عودته .. سيقولون : إنه سوف يعود الينا ، كما كان يعود في كل مرة .

« اللهم إني أسألك إنابة لا رجعة بعدها ولا حور .. يا مصلح الصالحين ، يامهدي المضلين يا أرحم الراحمين » .

ووضع رأسه على الأرض ، وراح يبكي .

كان يقترب في زحفه من العين التي كانت في أسفل التل ، ولم يبق على اختفاء الشمس وراء التل الا ما يعادل

قامة رجل بطوله .. ولم تعد الغيمة وحدها فقد جرّت وراءها غيوماً كثيرة .

ما الذي أصابه ؟ لعل شدة الجري في الماضية قد أثر في أحشائه ؟!

ها قـــد اقترب من العين ، فحلقت الطيور نافرة ، واختفت الشمس وراء التل ، وغطاه الظل .

لا بد أن تكون القرية وراء هذا التل ، لم لا تكون وراءه فعلا .

أيبلغ به الضعف هذا المبلغ ؟

والتفت الى الخلف .. لقد قطع مسافة لا بأس بهـا .. ولكنه شاهد حيوانا يجري ، مقبلاً من ناحيـــة الجبل .. وتطلع إليه جيداً ، أيكون هذا هو الذئب ؟ . قد عاد مرة أخرى ؟!.

ومضى في زحفه إن الذي نجاه في المرة الأولى يستطيع ان ينجيه هذه المرة أيضاً . واشتد عليه العطش .. واقترب من العين .

كانت محاطة ببعض الصخور الملساء ، وكان ماؤها قريباً من مستوى سطح الأرض ، ولكنه لا يجري .

وبصعوبة ألقى بنفسه عليهـــا ، ومدّ يده فغسلها ، وبلل وجهه وشفتيه ، ثم ترك قطرات تنزل الى جوفـه ، واكتفى بهذه القطرات،ولم يشعر بعدها بحاجة الى الماء . ولكنه لم يستعد نشاطه ، ولا قوته ،

ونظر الى التل نظرة فيها الكثير من الألم والتعب ، وشيء من الرغبة. إنه لو استطاع ان يتسلقه لرأى القرية، لتمتع برؤية الناس الذين يعبدون الله ، واذا رأى أحداً ، فسيطلب نجدته .

وسمع الى جانبه حركة ، وصوتاً ، فالتفت .. هـذا الحيوان قد وصل .. الحمد لله . اذن لم يكن ذئباً كما كان يتصور . إنه كلب .

ورأى في عيني الكلب أكثر من سؤال .. بل قرأ في عينيه سطور العطف عليه .

كان كلباً من النوع الكبير ، يميل لونه الى البني الفاتح وكان أليفاً نظيفاً ...

فقد أقبل على العين يشرب منها ، ثم رفع رأسه ينظر إليه ، كأنه يسأله عن حاله ..

وكان قد شعر ببعض الراحة لوجود الكلب ، ودفع نفسه يزحف .

كان التل ترابياً ، وقد وجد صعوبة في تسلقه .. ولكنه لم ييأس ومضى ، يتشبث ، وفي اثناء تشبثه تذكر الرجل الذي كان يستغيث .

« يا إلهي لا تؤاخذني » .

ورأى حيواناً يختفي في جحر قريب .

ولكن ما له وللحيوان . ومضى يدفع جسمه الكبير ، ولم تعد لديه القوة الكافية ، وسبقه الكلب بقفزة الى أعلا التل ، ووقف ينظر إليه كانه يستحثه. وذكره هذا بمنظر العجوز التي سبقته الى أعلى الجبل ووقفت تستحثه .

لم يكن التل عالياً ..

كان قليل الارتفاع . ولكنه بالنسبة إليه ، في وهذه الحالة ، يبدو كأعلى جبل .

لقد قطع مسافة لا يستهان بها ، ولم يبق على الوصول الى قمة التل إلا خطوه واحدة .

« يارب أعني .. »

وأغمض عينيه واستطاع أن يأخذ بعض الراحة ..

وكان مع كل دقة من دقات قلبه يذكر الله ، ويتضرع إليه .. ويرجو رحمته .

ما الذي يجنيه الإنسان من الدنيا ؟ .. لماذا يضيع الانسان وقته وهو رأس ماله في الحياة ؟

كم تمر على الإنسان فرص يتركها تفلت من يده ثم يندم عليها ..

كان يستطيع أن يتوب قبل عشرين عاماً ..

لماذا لم يفعل ؟!

واستطاع أن يدفع جسمه بمقدار اصبع او اصبعين .. لقد تحسس قدمه ، وشعر أنها قد انتقلت من موضع ترابي إلى حجر صلب .

وبلغ برأسه سطح التل ، وأطل ينظر ..

لم يكن التل عريضاً ، إن عرضه لا يزيد على خطوات.. واستطاع ان يتحرك اكثر ، فرأى السهل الممتد وراء التل ..

كان السهل جميلاً رائعاً ..

سبحان الله .. كم هو الفرق بين هذا السهل الأجرد الذي تركه وراء ظهره ، وهذا السهل الأخضر الذي يراه أمامه ؟!

كل شيء قد تغير وراء التل حتى الهواء، أحس بعذوبته ورطوبته ، والشمس ترتفع قليلاً عن الأفق ، تداعبه وهو ينظر اليها باسطاً ذراعيه .

وزاد من جمال السماء هذه الغيوم البيضاء الكثيرة، التي ازدحمت فوقه .

واستطاع ان يدفع نفسه على التل واستلقى على ظهره. كانت لحيته الكثة قد تمرغت بالتراب ، وثيابه كلها متربة، وكفه الكبيرة ، التي كانت قبل اليوم تفتت الصخر ، سقطت الى جانبه متخاذلة . وكان يردد مع دقات قلبه ، وعينه تنظر الى السماء :

ـ يا الله .. يا الله .. يا أرحم الراحمين .. يا الله .

هل يستطيع أحد أن يحمله الى القرية؟ لكن أين هي القرية ؟ ..

ويبدو أن الكلب قد آلمه منظر الرجل المتخاذل المطروح على التل ، فذهب يعدو نحو مغرب الشمس .

وحاول أن يدفع نفسه وهو على هذه الحال ، ولكنه شعر بان هذه الطريقة تؤلم رأسه ، فعاد مرة اخرى ، وأخذ يزحف على بطنه ، واستطاع أن يصل الى الحافة الثانية من التل ، الحافة المطلة على السهل المعشب . وهناك أسند ذقنه الى يديه ، وراح يتطلع الى الأفق .

لقد جذب الأفق إليه قرص الشمس ، فضمها إليه بشوق ، واحمر وجهها خجلاً، فزاد هذا الاحمرار من جمال الكون .

ورأى الكلب يعدو ، واستطاع أن يرى على بعد.. بعيد ، عدداً من الرعاه يسوقون أغنامهم . لا شك أن القرية التي يقصدها ، تبعد كثيراً عن هذا المكان .

هؤلاء الرعاة يناون بأغنامهم في طلب الرزق ، ولا

شك أن القرية أبعد بكثير مما يتصور رجل في مثل حالته.

ولم تستطع الغيوم الصغيرة التي تقبل من جهة الأفق ان تحجب قرص الشمس ،ولكنها في هذه الناحية ازدحمت تماماً ، وتبدل الهواء .

وشعر كأن نفسه تغيب،ثم تعود..أهذه هي سكرات الموت ؟ !

وكان يغمض عينه ويفتحها ،ويحاول أن ينأى بصدره نحو القرية .

وخيل إليه ، وهو في اغماءته أنه يسمع صوتاً :

ـ ان هذا الرجل جاء تائباً مقبلاً بقلبه الى الله تعالى .

وكان لا يفتأ يردد مع نفسه .. لا إله إلا الله .. اللهم إني تبت إليك .. يا ألله .

وكان لسانه يتحرك فقط ، أما شفتاه ، فلم تقويا على الحركة .

وبصعوبة فتح عينه، وخيل إليه كأنه يرى من ناحية الأفق وجه الطفلة الصغيرة التي رآها الليلة الماضية ، كأنها

تلوح له بيدها مودعة .

ثم أغمض عينيه ، وشعر كأنه يغوص في بحر فيغطيه ماء عظيم .. ثم سمع ذلك الحوار مرة أخرى :

ـ إنه لم يعمل خيراً قط .

واستطاع ان يفتح عينيه ، فرأى الشمس قد اختفت وراء الأفق ، وبدأت السماء ترسل رذاذاً . وتذكر وصية امه .. اذا رأيت المطر ينزل فادع الله يا بني .

وكان يراها فيمثل هذهالأحوال تتضرع إليه سبحانه. وهتف بكل جوارحه :

ـ يا أرحم الراحمين إني تبت اليك .. يا ألله . إني جئت اليك فاقبلني .

وخيل إليه مرة اخرى كأنه يرى أمه تقف على أرض خضراء ، تشير إليه .. أن هلم .

أهذا تأويل رؤياه ؟

وحاول أن يدفع نفسه مرة اخرى ، فتدلى رأسه نحو السهل الأخضر ، وأخذته غمرة الموت .

وعاد يسمع ذلك الحوار .. ثم كأنه يرى شبحاً في صورة آدمي يشير بيده ويقول :

– قيسوا ما بين الأرضين فالى أيتهما كان أدنى فهو له.

وحاول وهو في تلك الحالة أن يدفع نفسه .. وشعر كأنـه تحرك فعلاً .. كأنه استطاع أن ينأى بصدره نحو القرية .

وحاول ان يتحرك أكثر .. أكثر .. فلم يستطع ، ولم يقو على الحركة .. بعـد ، فالقى بنفسه بين يدي الرب وهو يقول :

– اللهم إني جئت إليك .. اللهم إني عدت إليك .. اللهم إني تبت إليك .

وأخذته غمرات الموت .

ومضت فترة طويلة قبل أن يعود ذلك الحوار .. وكان يتلهف لسماعه .. وينصت إليه بكل حواسه.... وسمع صوتاً يقول :

– إنه أدنى إلى الأرض التي أراد .

وكانت الغيوم قد سدت آفاق السماء ، وطوقت فم الرجل ابتسامة راضية وصعدت روحه الى بارئها، واختفى الرعاة .. وذهب الكلب وراءهم .. ثـم هطلت الأمطار ..

فهرس

	صفحة
١ – الراهب	٥
٢ – جريمة في الصومعة	١٩
٣ – الباب الضيق	٣١
٤ – بداية الطريق	٤٥
٥ – يقظة القلب	٥٧
٦ – قوم يعبدون الله	٦٨
٧ – في طريق العودة	٨٢
٨ – ثم هطلت الامطار	٩٩

مطابع
المكتب الإسلامي

دمشق - بيروت